١٠٠٢

1002

دار النحاس

Harlequin

روايات عبير

سلسلة قصص و

الحب أقوى من الطلاق

من ينتصر في النهاية: الحب المستمر بين زوجين طلقا بسبب الإختلاف في المفاهيم والنظر إلى الأشياء برؤية مغايرة.. أم محاولة المرأة في الإفتراق عن مطلقها إلى الأبد لأنها صاغت أفكارها عنه بشكل صارم لا مجال فيه للغفران؟

إنها قصة حب وطلاق كلير المحاسبة المتزمتة الدقيقة، وديفيد الكاتب المرح الطليق في أسلوب آسر نجحت الكاتبة بأنّي ستندارد في إبداعها.

لا يحظى المرء بالدفء إلّا في بيته

لأن الطلاق هو أبغض الحلال عند الله، كانت هذه الرواية دعوة صريحة لمناهضة الطلاق في إطار من الحب والتفاهم والتضحية.

تقدم لنا الكاتبة باتي ستندارد في هذه الرواية، صورة أخاذة لزوجين طلقا واستمر حبهما لاعجاً في قلبيهما، في سياق سردي رقيق يسبر أغوار النفس بيما ينبشه من مخبوءات لا تتم معالجتها إلا حين تستخرج من أعماق النفس بعدما تحولت عقداً سيكولوجية، إلى سطح هذه النفس لتوضع قيد التحليل والتشريح مع ضوء الشمس والحقيقة الناصعة.

وككل عمل أدبي جيد، ينتصر الخير على الشر، ويثبت الحب أنه أقوى من كل الصغائر التي تؤدي عادة إلى الفراق بين الأحبة.

إنها دعوة إلى إيثار الحب والتفاهم والتفاني على تراكمات خلافات الماضي التي لا تقاوم رياح الحب القوي.

باتي ستنداود

بدأت مهنة الكتابة بعد أن توقفت عن العمل دواماً كاملاً، وأخذت تقدم في البيت خدمات الطباعة على الآلة الكاتبة. وتقول إن معالج الكلمات الجديد وكل تلك الأقراص الفارغة كانت تثير الاغراء لإهمالها. ولما كانت تهوى الرواية وهي في العقد الثاني من عمرها، قررت أنه حان الوقت كي تحاول أن تكتب الروايات التي كانت تختزنها منذ سنين في فكرها.

وتحب باتي التجوال أيضاً. فقد بدأت وهي في السادسة عشر من عمرها برحلة إلى جزر هواي، وما زالت مستمرة منذ ذلك الحين تتجول. وتدرك عائلتها أنها عندما تأخذ في نشر مجموعة الخرائط التي تملكها في أرض الغرفة، فإن ذلك يعني إثارة المتاعب. وتعيش باتي مع أولادها وزوجها في بلدة صغيرة بغرب ولاية كولورادو، بالقرب من جبال الروكي ماونتنز.

الفصل الاول

تمالكت كلير أعصابها وأقفلت الخط بتمهل وهدوء.

رفعت ابنتها بصرها عن دفتر التلوين المفتوح على طاولة المطبخ وسألتها وهي تتخلى عن قلم أحمر وتجول ببصرها في الأقلام الأخرى لتختار منها لوناً مناسباً.

«ماذا كسر هذه المرة؟»

فأجابتها أمها باقتضاب وهي تتناول المعطف المعلق على باب البيت: «لم يكسر شيئاً. بل سدّ شيئاً.»

«هل سدّ مصرف المجلى مرة ثانية؟»

فأومأت كلير أولسون برأسها ثم ارتدت معطفها الثقيل فوق قميصها القطني، إذ برغم حلول شهر نيسان كان الطقس لا يزال شتوياً في مينوبوليس والرياح الشمالية القارسة تعصف بجوانب البيت القديم.

أخيراً اختارت الطفلة قلماً أخضر وعلّقت قائلة: «حسبت أنك طلبت منه أن يكفّ عن رمي حثالة القهوة في المصرف.» وعادت تنحني على دفتر التلوين وتركز على دقّة العمل وساقاها النحيلتان تتأرجحان تحت الكرسي.

أخذت كلير ترفع بصعوبة سخاب معطفها السميك وأجابت: «لقد أقسم بأنه لم يفعل. كاتي، هل لك أن تأتيني بسرعة بصندوق الأدوات فقد اضطر لتفكيك الأنابيب مجدداً.»

فامتثلت الطفلة حالاً وتركت كرسيها قائلة: «أتريدين الشفّاطة أيضاً؟»

«أجل، واجلبيها.» وشتمت في السرّ شبكة الأنابيب شبه البالية في هذا البيت القديم. فهذه ثالث مرة في الشهر يحصل الإنسداد.

وسألتها كاتي بأمل: «هل أستطيع أن أصعد معك؟ فلعله يطلب منّا البقاء لتناول العشاء.»

فأجابتها كلير مؤنبة: «لا تعودي إلى عادتك السابقة في استجداء الطعام! سوف أهيىء العشاء فور عودتنا.» فسألت الصغيرة بارتياب: «ماذا سنتعشى؟»

«طبقك المفضل، أصابع السمك مع...»

فأكملت كاتي بتأفف وقرف: «مع المعكرونة والجبنة.»

«ولكنك تحبين أصابع السمك!»

«ليس ليلة بعد ليلة!»

«حسناً، بوسعنا إذن أن...»

«أعرف. أعرف. بوسعنا أن نأكل بيضاً مقلياً وخبزاً محمصاً.» ثم تنهدت ومضت لتأتي بصندوق الأدوات من خزانة المدخل.

عادت بسرعة وهي تجر المضخة اليدوية، وتحمل بيدها الأخرى الصندوق الأحمر المهلهل الذي حوّلته كلير إلى عُدّة إسعاف أوّلي لشبكتي الأنابيب والأسلاك الكهربائية اللتين يعود تاريخ تمديدهما إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية... ساعدت ابنتها في ارتداء معطفها الصغير وأحكمت رباط قبعته تحت ذقنها. ثم تزودتا بأنفاس عميقة من هواء الشقة الدافىء قبل أن تفتحا الباب وتخرجا إلى برد الليل وزمهريره.

«عليك اللعنة يا ديفيد!» غمغمت كلير بتأفف حين غادرت شقتها في الطبقة الأرضية وارتقت مع ابنتها الدرج الخارجي

للمبنى المؤلف من ثلاث طبقات... كيف توقّع منها أن تخرج في ليلة متجمدة كهذه؟ تجمدت أصابعها حول مقبض الصندوق المعدني. فنقلته إلى يدها الأخرى وتمنت لو أنها لبست قفازيها.

بدا كل شيء هادئاً عندما مرّتا بشقة الكابتن في الطبقة الثانية، فطلبت من كاتي أن تكفّ عن جرّ المضخة وضر بها بكل درجة تصعدانها خشية أن يكون الكابتن وزوجته قد آويا إلى الفراش إذْ من عادتهما الاستيقاظ باكراً... بدا لها أنهما سيكونان مستأجرين جيّدين. صحيح أنهما غريبا الأطوار إلى حد ما ولكنهما يدفعان الإيجار في الموعد المحدد.

حين وصلت إلى الشقة العليا أطبقت أسنانها على الرغم منها. كانت رائحة اللحم المشوي تتسرب من جوانب الباب الأمامي المغلق حاملةً معدتها الخاوية على الجعير. كما أن الضوء الخافت المتماوج والطارح ظلالاً على الستائر لا يمكن إلا أن يصدر عن تلك الشموع المعطرة التي يحب استعمالها حينما يدعو امرأة ما إلى العشاء والشراب.

وقالت في نفسها وهي تطرق بابه بقوة: «عظيم! إنه يستدعيني لإصلاح الأعطال كلما كانت لديه امرأة!»

ولما انفتح الباب، لاحظت كلير أنها امرأة شقراء هذه المرة، على جانب كبير من الفتنة والإغراء. استوعبت ذلك وهي تُدخل كاتي أمامها إلى دفء الشقة وأنوارها الخافتة. كانت المرأة تجلس إلى الطاولة تحمل كأس شراب، وبرغم المسافة بدت للعيان أظافرها المطلية بلون أحمر قانٍ يتناغم تماماً مع فستانها الأحمر ذي الياقة المقوّرة الفاضحة.

مدّت كلير يدها آلياً وكبست زرّ الكهرباء المجانب للباب. ثم

شعرت بشماتة عابرة حين رأت المرأة الشقراء تزم عينيها في النور الساطع فتبدو أقل سحراً مما بدت في ضوء الشموع المعطرة.

زمّ ديڤيد عينيه بدوره انزعاجاً من النور المفاجىء وهتف: «كلير! أنت حقاً بارعة في إفساد الأجواء!» فأجابته بصوت قاسٍ : «دائماً أجد صعوبة في فتح المجاري المسدودة على ضوء الشموع. أليست هذه سخافة؟»

ولكن مستأجر الشقة ابتسم لها دونما تعليق وأقفل الباب في وجه الريح. ثم استدار إلى كاتي ورفعها عالياً في الهواء وأخذ يطوّحها قائلاً: «مرحباً بالأميرة! أتعلمين أن أمك تملك لساناً لاذعاً؟»

فردّت بجدية: «قالت إنه يجب أن نعاملك بحزم.»

«حقاً؟ من الأرجح أنها على صواب.» فرمقته كلير بنظرة حادة وهي تنزع معطفها. ولمّا عبرت غرفة الجلوس ومرت بالطاولة لم تول المرأة الشقراء اهتماماً واقتصر سلامها على إيماءة مهذبة.

إنما لدى دخولها المطبخ لم تقدر أن تتجاهل بقايا الطعام الفاخر المنتشر على سطح الطاولة، طبقان عائمان بعصارات متحلبة من لحم مشوي؛ جلود بطاطا مشوية ما تزال مزدانة بزبدة ذهبية ولبن ناصع ولوز! لقد رش لوزاً مقطعاً على اللوبياء.

وضعت صندوق الأدوات إلى جانب المجلى واضطرت للإقرار بأنه طاهٍ بارع. ثم فتحت غطاء الصندوق وتناولت مفكاً طويل الذراع وتفرست في الماء المتجمع في المصرف وسألته: «ماذا ألقيت فيه؟»

«أوراق خس! أُقسم على ذلك! مجرد أوراق خس من السلطة.»

ثم نظر عبر كتفها وتابع: «حسبت أن آلة الإتلاف التهمتها ولكن حين فتحتُ الحنفية لاحقاً وجدت المصرف مسدوداً كما ترين.»

طفق يراقبها باهتمام لما بدأت تحرك المفك داخل آلة إتلاف القمامة بحثاً عن جسم صلب صغير قد يكون علق بالشفرات وأوقف عمل الآلة.

وفجأة قال صوت خفيض خلفهم: «ديڤيد، ألن تعرفنا إلى بعضنا البعض؟»

فأخفت كلير ابتسامة وفكرت في نفسها: أوه، إن الآنسة ذات الصدر الناهد تسعى إلى بعض الاهتمام... أما ديڤيد فهرع إلى الضيفة قائلاً: «ميليندا، حبيبتي، اقبلي اعتذاري... ودعيني أقدّم لك كلير، صاحبة المنزل وهذه هي أميرتي الصغيرة. كاتي، ولا بدّ أن هذا صولجانها.» أضاف ذلك مداعباً ومشيراً إلى المضخة المطاطية التي كانت ما تزال تحملها، فقهقهت الطفلة المستكينة على ردفه، وطبع قبلة على أنفها ثم أنزلها إلى الأرض ليساعدها في خلع معطفها، وتابع عملية التعريف قائلاً: «سيدتي، آنستي، أقدم لكما ميليندا، مدرّبة الرياضة في نادي الصحة الذي أرتاده.»

ابتسمت لها كلير ابتسامة واهنة وقد صممت على ألاّ تشعر بالنقص إزاءها على الرغم من أنها أقصر من المرأة بنحو ست بوصات، وترتدي بنطال جينز باهتاً وقميصاً عفا عليه الزمن.

«أهلاً،» قالت كلير.

«أهلا،» ردّدت كاتي.

«أهلاً،» قالت ميليندا.

انتهت المجاملات بالنسبة إلى كلير وعادت تركز اهتمامها على المجلى تاركةً لديڤيد مهمة المحافظة على استمرار الحديث. فالأحاديث كانت دائماً من اختصاص ديڤيد القادر على سحر أفعى. هكذا فكرت كلير وهي تسيّر آلة الإتلاف وتصغي إلى دوران الشفرات الناجح، مع أن المصرف ظل مسدوداً. تنهدت وتناولت المضخة المطاطية من كاتي وراحت تضخ السائل في المصرف بضربات تجريبية وهي تصغي إلى كلام ديڤيد الذي كان يتوزع بين الثناء على ميليندا ومداعبة كاتي.

اضطرت للإقرار بأسلوبه الناجح مع النساء. فالعاملات في الحوانيت والمتاجر، وموظفات المصارف، وحتى العجائز اللواتي يطلبن الإعانات للجمعيات ما أن يتحدث اليهنَّ بضع دقائق حتى يحملهنَّ على الابتسام والشعور بأنهنَّ أصغر سناً وأرشق قدّاً مما هنَّ عليه.

وسمعته الآن يقول لكاتي: «هيا يا أميرة، إليك بقطعة.»

فالتفتت إلى الوراء لترى كاتي واقفة عند الطاولة تنظر بتوق إلى فطيرة تفاح تكاد تلاصق أنفها، وكان ديڤيد يتناول سكيناً ليجتزىء منها قطعة لكاتي.

فقالت بنبرة حادة: «لم تتناول عشاءها بعد.»

كانت تعرف بأن الفطيرة ستكون لذيذة تسيّل اللعاب. وتعرف أيضاً بأنها إذا قورنت بمدربة الرياضة الفائقة الرشاقة ستبدو مثل سجقة محشوة، فقطعة واحدة من هذه الفطيرة تحوي سبعمائة وحدة حرارية في أقل تقدير. فديڤيد لا يستعمل إلا الزبدة الدسمة.

وقال ديڤيد للصغيرة: «إذن، خذيها معك وتناوليها بعد العشاء. ماذا ستأكلان؟ أصابع السمك أم بيضاً مقلياً؟» فأجابت كاتي بأسى: «أصابع سمك.»

«آه!»

شدّت كلير شفتيها وأخذت تضخ في المصرف بعنف، الأمر الذي جعل الماء يتطاير على نحو خطر... ممَ تشكو أصابع السمك؟ إنها سريعة التحضير، مغذيّة ولا تحترق جوانبها ويبقى داخلها نيئاً مثلما يحصل للأشياء العديدة التي تحاول طهوها. وكذلك الأمر بالنسبة إلى البيض المقلي.

وعلّق ديڤيد بقصد المساعدة: «كلير، إذا سخّنت الفرن مقدماً سيساعد ذلك على إنضاج السمك جيداً.»

«أشكرك على نصيحتك،» ولكنها لم تبد شاكرة.

وقال ديڤيد بحماسة مخاطباً ميليندا: «من الخير أن نمضي، وإلاّ فاتنا موعد السينما.»

«السينما؟ حسبت أننا سنذهب لنرقص، ثم إن ثيابي أكثر أناقة مما يتطلبه الذهاب إلى دار للسينما. ألا تظن ذلك؟»

وللمرة الأولى لاحظ فستانها الأحمر الملتصق بجسمها وياقته المقوّرة وقماشه الرقيق فأدرك غلطته ولكنه قال بذلاقة: «تبدين حلوة ورائعة، وأنا متشوق للتباهي بك على حلبة الرقص.»

فابتسمت له متألقة المحيا، وعادت كلير تهز رأسها اندهاشاً من الطريقة التي تنخدع بها النساء بكلامه المعسول.

وقال لها: «كلير. بوسعك أن تشيّعي نفسك إلى الباب بعدما تنتهي من إصلاح المصرف. أليس كذلك؟ آه، ولا تنسي فطيرة التفاح.»

«لا عليك من هذا الأمر.»

قالت ذلك بعدما رأت أن صفيحة الفطيرة قد أصبحت بين يدي كاتي.

وهُنا نهضت ميليندا من مكانها وقالت وهي تقف بقرب ديڤيد وتضع يدها على ذراعه: «إن صاحبة البناية رائعة بالفعل، وآمل أن تدرك مدى حسن حظك كونك مستأجراً لديها. فأنا أضطر لأخذ موعد مسبق من مدير البناية التي أقطن فيها لمجرد أن يغيّروا لي مصباحاً محترقاً.»

استشعرت كلير الصدق في مديحها فاستدارت نحوها لتنظر إليها بإمعان. وبدت لها ذكية واعية. لم تستغرب ذلك لأن ديڤيد لا يخرج عادةً مع نساءٍ تافهات العقل مهما كنّ جميلات الشكل.

وسمعت ديڤيد يجيب: «أجل، ليس هناك أبرع من كلير في إصلاح الأشياء التي أعطبها.» ثم بعثر شعر كاتي ولثم جبينها وقال: «ولديها أيضاً مُساعدة صغيرة عظيمة. طاب مساؤك يا أميرتي. أنا أحبك.»

فابتسمت له كاتي بوله وقالت: «طاب مساؤك يا بابا، أنا أحبك أيضاً.»

«بابا؟» اتسعت عينا ميليندا وحدقت إلى الطفلة بهلع. فقال ديڤيد معتذراً: «أوه، نسيتُ أن أذكر ذلك، فكلير زوجتي أيضاً.»

«زوجتك؟» شحب لون المرأة المسكينة ونظرت إلى كلير بهلع، فاشفقت عليها وصححت الأمر بحزم: «أنا زوجته سابقياً، ولكن ديڤيد يشتط أحياناً في مزاحه.»

«أنا لم أطلقك يا كلير، أنت التي طلقتني.»

فردّت بصوت آمر: «كفَّ عن ذلك يا ديڤيد! لا تقلقي يا

ميليندا، لقد تطلقنا منذ عامين تقريباً، هو رجل حرّ الآن، قد يكون ضالاً ولكنه حرّ.»

وسألته ميليندا بوهن: «أتعيش في البناء نفسه مع زوجتك السابقة؟»

«ألا يحتم عليَّ الواجب بأن أظل قريباً من أميرتي الصغيرة؟ هل بوسعي أن أدعها تكبر من وراء ظهري ثم تهرب مع ضفدع؟»

ضحكت كاتي طرباً لكلامه فيما تمكن ديڤيد من حمل ميليندا على ارتداء معطفها والخروج بها من الشقة. وقالت كلير في نفسها وهي تضرب المضخة بقوة: «أراهن على أنه يستمتع الآن بالسهرة.» وما أن انطبق باب الشقة خلفهما حتى قرقر المصرف وتجشأ وبدأ ماء الحنفية يجري فيه متدافعاً مخرخراً.

«مرحى! لقد أصلحته!» هتفت كاتي تهنىء أمها. ثم جرّت كرسيّاً إلى المجلى ووقفت عليه لتراقب مع كلير جريان الماء في المصرف.

ولما اطمأنت كلير إلى النتيجة فأقفلت الصندوق وساعدت كاتي على هبوط الكرسي. دارت على عقبيها فواجهتها الطاولة المحملة بالأطباق والأواني القذرة... وفكرت قائلة: هكذا يتصرف ديڤيد دائماً... يمضي ويترك الفوضى وراءه، ولربما كان شعاره طوال سنوات زواجهما الخمس هو «سأفكر لاحقاً بالمشكلات.» وهو لم يتغير بتاتاً خلال عامي الطلاق المنصرمين... كان، عندما تريه كدسة من الفواتير غير المدفوعة، يجيبها: «لا تقلقي.» وعندما تسأله إذا كان تلقى رداً من المجلة التي أرسل لها قصة للنشر، يعطيها هذا الجواب

المراوغ نفسه الذي كان يثير فيها قلقاً وصداعاً فوريين.

سارت إلى الطاولة وأطفأت الشموع، وبدأ تكدّس الأطباق بحركات آلية مثلما فعلت مئات المرات في خلال زواجها وحيث كان ديڤيد يضطلع بمهمة الطهي وتقوم هي بجلي الصحون والأواني.

رتّبت المطبخ بمساعدة كاتي ورّصت الصحون في الجلاية وضغطت على زرّ تشغيلها. ثم جفّفت يديها بالمنشفة ووقفت تستعرض الغرفة. مُنقّلة بصرها بين قطع الأثاث المألوفة لديها مثل لوحة الفاكهة والزهور المعلقة فوق الأريكة والبساط الملوّن تحت طاولة القهوة، أجل كل هذه الأشياء زيّنت في ما مضى البيت السفلي الذي اشتركت فيه مع ديڤيد.

عُلّقت منشفة الصحون على مقبض الثلاجة ولفتت نظرها قطعة المغناطيس على باب الثلاجة والتي يلصق بها ديڤيد قوائم المشتريات. تذكرت هذه القطعة المُصاغة في شكل قلب والمحفور عليها إسمها. وتساءلت بتوتر: لماذا! يحتفظ بها بحق السماء. لقد اشترياها في شهر العسل من حانوت هدايا على شاطىء البحر ولكنها نسيت أمرها منذ سنوات عدّة.

غريب، كيف تنشطر الأشياء عند الطلاق... ديڤيد أخذ اللوحة والقلب المغناطيسي، وهي أخذت منافض السجائر - مع أنها لا تدخّن - وصورة عرس جدّته.

تنهدت ونظرت حولها تبحث عن كاتي، فتناهى إليها صوتُ دندنةٍ منبعثة من غرفة النوم التي احتفظ بها ديڤيد لابنته وكانت تحوي قسماً من ثيابها وألعابها إذ كثيراً ما كانت تبيت لديه.

ابتسمت كلير وهي تصغي إلى الأغنية الطفولية المنسابة إلى المطبخ، وأحست بأعصابها تسترخي من دون أن تدرك

بأنها كانت مشدودة... إن أيّ تعامل مع ديڤيد بات يوتر أعصابها هذه الأيام... منذ أن ابتدع تلك الفكرة السخيفة بأن عليهما أن يحاولا العودة إلى بعضهما البعض... وفي المدة الأخيرة، ازداد إلحاحه بطرق غير مباشرة. وصارت هي دائمة التيقظ تجاه غمزاته وتلميحاته المستمرة إلى أيام زواجهما الماضية الطيّبة. أيامهما القديمة الطيّبة: يا للهراء!

شدّت قامتها وحملت الصندوق وعبرت غرفة الجلوس ووضعته على الأرض بقرب الباب. ثم عادت تعبر الردهة لتأتي بكاتي. ولكن حين مرت بغرفة ديڤيد المفتوحة الباب لمحت شيئاً جعلها تقف وتتجمد. متى أعادها؟ لقد حسبت أنه أزالها منذ وقت بعيد وأخفاها في أحد الأدراج! ولجت الغرفة وحدقت في الصورة الموضوعة على المنضدة المجاورة لسريره. فرأت وجهها يبتسم لها من الإطار، أيام كان فتياً وسعيداً ومفعماً بالثقة... كانت تحمل كاتي بين ذراعيها وتقف تحت شجرة التفاح المزهرة التي ما تزال تظلّل فناء المنزل الخلفي.

كانت تلك الشجرة السبب الأساسي لشرائهما البيت الكبير بطبقاته الثلاث... كانا يعاينانه للمرة الأولى وكانت الشجرة مثقلة بالزهر الوردي المتلألىء، وتحدثا آنذاك كيف أن أولادهما سيجدون متعة عظيمة في اللعب تحت أغصانها المتشابكة. كان البيت، بالطبع، كبيراً وقديماً جداً، وأبدى السمسار لهفة في إعطائهما إياه بسعر مريح ولكنهما أعجبا بالجيرة الهادئة والبيوت المرتبة التي يعتني بها أصحابها الكهول، وبالشارع الضيّق الذي تحف به أشجار عالية تلتقي أغصانها ببعضها البعض مُشكّلة نفقاً أخضر في فصل الصيف.

لقد خططا كثيراً للبيت آنذاك، وكان مُقسماً إلى شقق فاتفقا

على تحويل الطابقين العلويين إلى غرف نوم لكل الأولاد الذين سينجبانهم... إنّما مع مرور الوقت، اعتادا الاتكال على المدخول التأجيري للشقتين فتخلّيا عن تلك الخطط، كذلك لم ينجبا الأطفال الذين اتفقا على إنجابهم. من جهة ثانية، أخذت البيوت حولهما تخلو واحداً إثر واحد. إما بسبب موت أصحابها أو لانتقالهم للعيش مع أقاربهم. وابتاعها منهم أزواج شبان أحدثوا في البيوت تغييرات عصرية كثيرة، الأمر الذي حوّل الجيرة إلى واحد من أكثر الأحياء عصرنة في مينوبوليس.

عبست كلير وهي تحدق في الصورة. لماذا لا يستطيع ديڤيد أن يواجه الحقيقة؟ فهذه الصورة تمثّل زمناً انقضى أمره، تمثل امرأة وطفلة من الماضي. فما بين تاريخ التقاطها وبين اليوم سنوات من خيبات الأمل المتناهية. والجدال الغاضب وفترات الصمت الطويلة. كما أن هناك سنتين من الطلاق! ولكنه رفض التآلف مع الطلاق وأصر على العيش في عالم خيالي مثل القصص التي يكتبها. كيف ادعى أنها زوجته حين عرّفها إلى صديقته؟ لماذا يجد صعوبة كبيرة في تقبل الحقيقة؟ حقيقة أن زواجهما لم ينجح أبداً؟

«ماما! ـ ماما! أكاد أموت جوعاً!»

أعادها هتاف كاتي إلى الواقع، كانت ما تزال تقف جامدة في غرفة ديڤيد تحدق في صاحبة الصورة.

«حسناً، فنلذهب،» أجابت بصوت عالٍ بعدما تمالكت نفسها. استدارت بقوة وغادرت الغرفة معلقةً بابها ومُقْسمةً بأن تؤمن لديڤيد صورة جديدة لكاتي ليضعها بجوار سريره.

رجعتا إلى شقتهما السفلية وبعدما تخلصتا من ثقل

المعطفين وأدوات السمكرة. وقفتا أمام الثلاجة المفتوحة ونظرتا بوجوم إلى علبة السمك الكرتونية التي أخرجتها كلير لتوّها من قسم التجليد. ثم مزّقت الغلاف بلا حماسة وألقت الأصابع المجلّدة في صينية وطفقت تقرأ تعليمات الطهي: «سخّني الفرن مسبقاً إلى درجة ٤٥٠.» اللعنة! لقد كان ديڤيد على صواب. نقرت بأصبعها على الطاولة وأخذت تحسب: خمس عشرة دقيقة على الأقل لتسخين الفرن إلى الدرجة المطلوبة، عشرون دقيقة أخرى لشيّ السمك... المجموع خمس وثلاثون دقيقة. هذا كثير! فمعدتها تقرقر جوعاً! أعادت السمك إلى علبته ووضعتها في قسم التجليد. ثم قالت لكاتي:

«ضعي طبقين وكوبين على الطاولة.»

وبعد دقائق معدودة وقفت مع كاتي تستعرض الأطباق على الطاولة وقالت بسرور: «إليك ما أعددت، ما رأيك؟»

«أهذا عشاؤنا؟»

«بالطبع! كلها مواد مغذية... جبنة وحليب وشريحة كبيرة من فطيرة التفاح اللذيذة التي صنعها والدك.»

فهتفت الطفلة وهي تجلس بسرعة إلى المائدة: «حسناً يا ماما!»

«وإياك أن تُعلمي أباك بالأمر.»

«لن أخبره أبداً.» وافقتها كاتي وهي تحشو فمها بالحلوى.

بعد العشاء ساعدت ابنتها في الاستحمام ووضعتها في الفراش. ثم قرأت لها عدة قصص وتمنت لها ليلة طيّبة وتوجهت إلى الحمام لتستمتع بالدوش الساخن الذي تاقت إليه منذ أن اضطرت للخروج في ذلك الزمهرير.

وفكرت وهي تجفف جسمها ثم تلبس سروالاً قصيراً مُخَرَّجاً

بالدانتيل: ما افتكر في حياته بأمور مثل الإصابة بالالتهاب الرئوي. إذا فكّر في وقائع الرشح والتهاب اللوزتين، فهذه الأمور كان يتركها لزوجته القديرة المسؤولة... كذلك لم يفكر أبداً بنتائج تصرفاته و...

وفجأة، لجمت كلير خواطرها الاتهامية. وتساءلت وهي تفتح الدُرْج لتخرج قميص نوم نظيفاً: «ماذا دهاني الليلة؟ إني أبدو مثل مطلقة حاقدة تسعى إلى الانتقام وهذا شيء عاهدتُ نفسي على ألاّ أكونه أبداً.»

ارتدت القميص ومشطت شعرها المبلل. وعادت تناجي نفسها... إن ديڤيد لا يخلو من العيوب بالطبع ولكنها هي أيضاً لها عيوبها... وإذا كان إثنان يصنعان الزواج فاثنان أيضاً يصنعان الطلاق! إن وقوفها هنا وصبّ اللعنات على ديڤيد ما هما إلاّ مدعاة لفتح جراح قديمة ولزيادة الأوضاع سوءاً.

إعترفت لنفسها بأن رؤيتها لتلك الصورة بجوار سريره هي التي هيّجت ذكرياتها هذه... كانت صغيرة جداً وقتئذٍ وغارقة في الحب حتى أذنيها... أسقطت المشط على طاولة الزينة واقتربت من المرآة لتدرس وجهها بإمعان... هل تبدو متقدمة في السن كما تشعر؟ هل يُظهر وجهها سني عمرها الثماني والعشرين أم يعكس العقود الإضافية التي تشعر بها نفسانياً؟ إنها، في الواقع، لا تبدو سيئة بالنسبة لامرأة تناهز الثلاثين. فهي لا زالت تلفت أنظار بعض الرجال بين حين وآخر، كما أن لون بشرتها يميّزها عن نساء المدينة الشقراوات الطويلات ذوات السلالة الاسكندنافية.

كانت جدّتها الكبرى من هاواي، وجدّها الأكبر من اسكوتلاندا. وهكذا ورثت كلير مزيجاً مثيراً من الشعر

الأسود الكث والعينين الخضراوين اللوزيتين والبشرة البيضاء. ابتعدت عن المرآة ووقفت جانباً. تنفست بعمق وشدّت عضلات بطنها... قوامها رشيق. لا بأس به. إنها بالطبع أقصر قامة في مقاييس الطول في مينوبوليس، ولا تقدر أن تكثر من أكل الحلوى عند العشاء. ولكنها تفضل جسمها الممتلىء الأنثوي على جسم ميليندا الفائق النحول.

داعبت شفتيها ابتسامة رقيقة... كان ديڤيد يمازحها دائماً ويقول بأن لها جسم راقصة من هاواي يخفي مهنتها كمُحاسبة. وفي الواقع كانت هي تعتبر قوامها الجذّاب لعنة لا نعمة. فشبهها لراقصة «هولا» من شأنه أن يجذب الرجال الباحثين عن الإثارة والمغامرات، وهي تكره هذا النوع من الرجال... ربما لو كانت أقل حُسْناً وجاذبية لاستطاعت اجتذاب الرجال الموثوقين الحقيقيين الذين تبحث عنهم - بدلاً من التافهين الفارغين!

وقطعت حبل أفكارها وفجأة دقّة على الباب. التفتت إلى الساعة فإذا بها العاشرة والنصف. عبرت غرفة الجلوس حافية بعدما أضاءت مصباح الطاولة. لم تحاول النظر من الثقب لتتأكدها من هوية الزائر. وقالت بصوت آمر وهي تفتح الباب: «امضِ إلى بيتك!»

«آه. كلير، لا أريد الذهاب إلى بيتي. ما رأيك في أن نتبادل الحب عوضاً عن ذلك؟»

الفصل الثاني

«كلا!»

وقف ديڤيد على العتبة ويداه مدسوستان في جيبي معطفه. كان شعره الأشقر مبعثراً بفعل الريح اللاسعة وأخذ ينقل ثقله من قدم إلى أخرى ابتغاءً للدفء.

«حبيبتي. دعيني أدخل! الطقس جليدي في الخارج! هيا نذهب إلى غرفتك.»

كان في أسوأ حالاته الجامحة. ولكن كلير لم تتأثر البتة.

«لا يمكنك أن تطرق بابي مُضَمَّخاً بعطر امرأة أخرى وتتوقع أن تدخل غرفتي ببساطة. إمض إلى شقتك!»

بدأت تغلق الباب فأوقف ذلك بحركة سريعة من يده وسألها: «كيف لك أن تتأكدي من العطر وأنت تبقين بعيدة عني؟»

تنهدت كلير بنفاد صبر. فهي تكره التعامل معه حين يكون في هذا المزاج. كذلك تكره الوقوف عند باب مفتوح جزئياً، وهي ترتدي قميص نوم قصيراً... أستغل ديڤيد ترددها فدفع الباب وولج الشقة مصطدماً بكلير التي كانت تحاول الاستمرار في صمودها. قال وهو يحتويها بين ذراعيه: «والآن. هل أنا مضمخ بالعطر؟»

«أجل، وجسمك بارد. إليك عني.»

حاولت دفعه عنها فأخفقت. أما هو فتراجع قليلاً ريثما فتح سحّاب معطفه ثم احتوى خصرها بيديه وألصقها برفق بدفء كنزته الصوفية السميكة.

«أهكذا أفضل؟» سألها متجاهلاً يديها المكافحتين في إبعاده. ثم اشتم الهواء وتابع: «لديَّ فكرة رائعة! ما رأيك في أن أضع شيئاً من عطر زهر البرتقال الذي تعطرت به لأغطي بذلك رائحة العطر المنبعثة مني. وبعد ذلك نتمكن من تبادل الحب.»

استطاعت كلير أن تبتعد عنه قليلاً ثم رفعت رأسها ونظرت إليه وعيناها الخضراوان تلتمعان بمقدارين متعادلين من التسلية والتضايق: «ليكن في علمك بأني لم أستعمل أي عطر - هذه رائحة الشامبو.»

فقال وهو يعبث بخصلة طويلة من شعرها الرطب: «هذه فكرة أخرى بديعة! لماذا لا نستحم معاً؟ لم نفعل ذلك منذ سنوات! بوسعنا أن نتبادل غسل الشعر والظهر و...»

«ديڤيد!»

صَفَعَتْ يده التي كانت قد امتدت إلى ظهرها، ولما نجحت في التملص منه اتجهت إلى غرفة الجلوس، ولكنها كانت تبتسم قليلاً. فلحق بها مراقباً حركة ردفيها وقال وعيناه تجوبان ساقيها الطويلتين الناعمتين حتى القدمين: «لا تتزمتي إلى هذا الحد يا كلير. يجب أن تُقِرّي بأن الحب لم يكن واحداً من خلافاتنا.»

فأجابته وهي تجلس على الأريكة: «صحيح، إنما كان عليك أن تفكر في إشباع رغباتك أثناء وجودك مع صديقتك الشقراء.»

فنزع معطفه وألقاه على ظهر الأريكة ثم جلس بقربها ووضع قدميه على الطاولة وقال: «فكرت بأن أفعل ذلك ولكنني أخشى كوني وميليندا غير متلائمين.»

فعلّقت بازدراء: «وماذا توقعت بعدما أعلنت لها بأنك

متزوج؟ يكفيها صعوبة أن تجد رجلاً لا يكف عن امتداح زوجته السابقة أمامها. فما بالك برجل يتظاهر بأنه ما يزال متزوجاً؟»

«أنت طلقتني. أنا...»

«أعرف! أعرف!» قاطعت اسطوانته هذه بصبر نافد.

فقرّبها منه وشعر بمتعةٍ حين أراحت رأسها على كتفه. قال: «ثم إن ميليندا ليس لها عبيرك الشذيّ... ولا نعومة ملمسك، وأظن بأني إذا كلّفت نفسي بعناقها سأكتشف بأنها تفتقر إلى طيب نكهتك.» كان يتكلم بجدية. وأضاف قائلاً: «وأنا أريدك.»

«ديڤيد! كُفَّ عن ذلك!»

استوت جالسة وابتعدت عنه حتى صارت على زاوية الأريكة. بدت الآن غاية في الجدّية. فهو يعلم كم تكره أن يتكلم هكذا. إنها تتقبل مزاحه إنما ترفض تقرباته الحميمة.

«آسف.»

تراجع فوراً شاتماً نفسه إذ أدرك أنه تخطى حدوده ودفع بقوة الباب الذي تحافظ على إقفاله في وجه محاولاته المتكررة للتقرب منها مجدداً.

وقال الآن بصوت مرح: «لم تكن سهرة مسلية إذ أمضت الوقت تتكلم عن عملها.»

«حقاً؟» سألت كلير باهتمام وهي تحاول استعادة استرخائها. ومضت تقول: «من المضجر أن يمضي المرء سهرة بكاملها في الحديث عن الرياضة في الهواء الطلق.»

«لم تتحدث عن ذلك فهي تعلّم الرياضة في نهايات الأسبوع فقط. إنها أستاذة في الجامعة - تدرّس الأدب الانكليزي.»

«أوه!»

«أجل، لقد أمضت السهرة تنتقد كتابي.»

«آه...» وأومأت بتعاطف إذ استطاعت أن تتصور استياء ديڤيد من السهرة كونه لا يتقبل النقد. ومضى يقول: «لم تعط كتابي التقدير الذي يستحقه مع أنه يحظى هذا الشهر بالمرتبة الأولى في قائمة «النيويورك تايمز» لأفضل الكتب رواجاً.» ثم أمسك بيدها وأخذ يعبث بأصابعها متأملاً إياها بصمت. كانت تزيّن صدر قميصها صورة قط برتقالي سمين. نظر إليه ملياً وفكر كم هو محظوظ لوجوده على صدرها وقال معلّقاً: «كان قميصك هذا المفضل لديّ. ولطالما تساءلت ماذا حلّ بالقط..»

هذه المرة راعى أن يحمل صوته النغمة المناسبة، فبعد سنتين صار بارعاً في اتخاذ المواقف التغزلية المشوبة بالجدية التي أرغمته كلير على اتخاذها. أحياناً كان يغلط، مثلما حدث الليلة حين بدت فائقة الإغراء في نور المصباح الذي رسم هالة حول شعرها وألقى ظلالاً غامضة على محيّاها. ولكنه يعرف من خبرته الماضية أن هذا النوع من الأغلاط لا يزيدها إلا نفوراً وابتعاداً.

وقالت كلير من دون أن تعي مدى ضبط النفس الذي كان ديڤيد يمارسه: «أنا والقط صديقان قديمان... أنا شديدة الحرص على اختيار رفاق سريري.»

فردّ بسخرية: «هذا ما سمعته.»

«ديڤيد!»

«كلانا يعرف جيداً أنني كنت أول وآخر رجل مارس الحب معك.»

فسألت بغضب: «كيف تعلم كل هذه الأمور عن حياتي العاطفية؟ أنت لم تدخل مخدعي منذ سنتين على الرغم من

محاولاتك المتكررة.» وسحبت يدها من يده وعقدت ذراعيها بعناد على صدرها.

فقال باعتداد: «عرفت ذلك من جاسوسة صغيرة تعمل لحسابي.»

«يا للنذالة! تستخرج المعلومات من طفلة!» تجاهلت الشعور البسيط بالذنب الذي اعتراها لعلمها بأنها طالما استعملت كاتي للغرض نفسه. وأضافت: «كذلك يجب أن لا تصدق كل ما تخبرك إياه طفلة في الخامسة.»

ولكنها أدركت أنه اكتشف زيف إنكارها. وهو على حق بالطبع، إذ كان الحبيب الأول والأخير والوحيد في حياتها. وهي تشك، برغم لا معقولية هذا الشك، بأنه لم يتخذ أية عشيقة منذ طلاقهما.

حدّقت فيه الآن متأملة وسامته الفائقة التي يتميز بها الإسكندينافيون: عظمتا وجنتيه عاليتان، أنف مستقيم ونقن مُرَبَّع. كان شعره الأشقر الذي يحتاج دائماً إلى تشذيب يتجعد قليلاً عند عنقه. وكانت عيناه الزرقاوان أشد زرقة هذه الليلة. وقد عززت لونهما الكنزة الزرقاء التي يرتديها. إنهما تكشفان بقوة شخصية رجل ساحر وحساس وعلى درجة عالية من الرومانسية والمثالية. ومن مراقبة كلير للنساء اللواتي كنَّ يصعدن إلى شقته ومن المعلومات التي كانت تزودها بها كاتي أيقنت بأنه في خلال العامين المنصرمين، لم يصادق امرأة واحدة لوقت طويل وكافٍ لإنشاء علاقة وطيدة تؤدي إلى الحب.

خفضت بصرها إلى فمه ذي الشفتين الممتلئتين وتذكرت على الرغم منها المرات العديدة التي أثارت شفتاه فيها

تجاوبات عميقة لا يستطيع أي رجل آخر أن يثيرها... كرهت أن تتصور أنه يعانق امرأة أخرى... وكم هي سعيدة لأنه لم يُقدم الليلة على عناق ميليندا المغرية. كانت يداها متقلصتين فأرغمت نفسها على التنفس بعمق فأسترخت يداها لا شعورياً.

سمع ديڤيد تنهيدتها الطويلة فتساءل عن سببها بقلق. فمؤخراً نقلتْ إليه جاسوسته الصغيرة بعض المعلومات المزعجة مع أنه لم يصدّق للحظة تلميح كلير إلى أنها قد تكون تصادق رجلاً معيناً. وقال عرضاً:

«أخبرتني كاتي أنك ترين لورنس كثيراً هذه الأيام.»

لم تنخدع بالعرضية الزائدة فأجابت باحتراس: «اضطلعت مؤخراً بضبط حسابات مخازنه الثلاثة. ولذلك أراه كثيراً.»

«عنيتُ علاقتكما على الصعيد الاجتماعي.»

«أوه. أجل إني أخرج معه.»

فقال بإلحاح مفاجيء وعيناه تلتمعان بتركيز: «كلير. يجب أن نتحدث.»

«أوه، لا يا ديڤيد! لا تعد إلى ذلك الموّال!»

وقفت فجأة وصدّت محاولته للقبض على ذراعها وسألت بمرح: «أتريد شاياً؟ قهوة؟» وبدأت تركض صوب المطبخ.

«كلير...»

«ما رأيك بالكاكاو الساخن المدفيء؟»

«كلير...»

كانت قد تناولت الإبريق ووقفت أمام المجلى لتملأه وقد فتحت الحنفية بغزارة. لحق بها بسرعة إلى المطبخ وسارع إلى إقفال الحنفية. ثم سحب الإبريق من يدها ووضعه على منضدة المجلى وأرغمها على الاستدارة صوبه، ولكنها لم

ترفع بصرها إليه. تهدلت كتفاها وتساءلت بتعب مستسلم. ما جدوى كل هذا ولطالما تجادلا حول هذا الموضوع؟ واستطاعت تقريباً أن تتكهن بكلماته التالية:

«كلير، أنا في حاجة إليك!»

فردّت بتعب: «هذا مجرد كلام.»

«وأنت تحتاجينني!»

«بل احتجتك. كان فعل ماض.»

«كلير، مضت سنتان وما نزال هنا ـ معاً! ألا يمكنك الاعتراف الآن بأننا خُلقنا لبعضنا البعض؟»

التزمت الصمت وظلت تحدق في الأرض.

«حسناً؟» سألها بعدما طال صمتها.

«حسناً، ماذا؟»

فقال بأسى واضح: «ما المشكلة يا كلير؟»

فرددت باندهاش: «ما المشكلة؟» نظرت في عينيه وأردفت بغضب: «تسأل عن المشكلة؟»

فهز كتفيها بلطف وقال: «في الحكايات، يلتقي شخصان ويقعان في الحب ثم يعيشان سعيدين إلى الأبد!»

«الحكايات!» ازداد غضبها فردّت بنزق: «أنت الذي تكتب القصص وليس أنا!»

«ماذا تقصدين بالضبط؟» سألها بغضب مماثل.

«أقصد أن دوام السعادة يتطلب أشياء أكثر من مجرد الحب.»

«أكثر؟ يا إلهي يا كلير، وماذا يوجد أكثر من الحب؟»

«أنّى لك أن تعرف؟ فأنت لم تفهم أبداً احتياجات الزواج الأخرى! لم تدرك الفرق بين الوقوع في الحب وبين أن يكون

المرء حبيباً ومحبوباً! مشكلتك أنك تُنهي كل قصصك بعبارة «وعاشا سعيدين إلى الأبد...» أنت بحاجة لأن تكتب تتمة يا ديڤيد! لأن تحاول أن تتصور كل الأمور الأخرى التي بوسعها أن تحصل لشخصيات قصصك بعد أن تذيّلها بالنهاية.»

كانت تتنفس بسرعة، وانفعالاتها القديمة ومشاعرها المكبوتة ترتفع إلى السطح وهي تحاول إيجاد الكلمات المناسبة للتعبير عمّا كانت تفتقده في زواجها وتحتاج إليه. ومضت تقول بتوتر وغضب: «ماذا عن الرفقة؟ ماذا عن المشاركة؟ ماذا عن الهوايات والأصدقاء المشتركين؟ ماذا عن الصداقة المتينة الطيّبة يا ديڤيد؟» وضربت المنضدة بكفها من باب التأكيد والتحدي.

فردد ديڤيد بذهول: «الصداقة؟ تريدينا أن نكون... صديقين؟»

«أجل، كبداية!»

ولكنه هزّ رأسه وقال مبتسماً ابتسامة خفيفة: «كلير، تعلمين جيداً أنه ليس بإمكاننا أبداً أن نكون صديقين.»

اقترب منها ليلغي المسافة التي حاولت وضعها بينهما وردد برقة «لن نكون صديقين أبداً.»

وعرفت أنه على حق، وعرفت لماذا، وكرهت السبب!

عجزت كلير تماماً عن كبح نفسها وطبعت قبلة على كفه... ولكنها لم تشعر بأي انتصار.

ومع أن يديها إلتفتا بطريقة ما حول عنقه. ومع أنها قرّبت وجهها من وجهه وراح قلبها يخفق بجنون إلا أن جزءاً من عقلها أخذ يردد: «لا، لا، لا!» فهكذا كانت تنتهي جدالاتهما في الماضي... مثلما يفعلان الآن. فتنسى مؤقتاً الفواتير غير

المدفوعة والكلمات الرعناء والتصرفات اللامبالية.

«لا، لا، لا!»

لم تع بأنها نطقت الكلمات بصوت مرتفع إلا حين وجدت نفسها طليقة. وظهرها يلاصق حافة المنضدة. مدّت يدها وتمسكت بها لتحفظ توازنها وحدقت في ديڤيد الحائر.

«ما الأمر يا حبيبتي؟ ما بك؟»

ولكنها عجزت عن الرد وعن الشرح. أدركت فقط أنها لا تستطيع السماح بحصول هذا التقارب الحميم. منذ أربعة أشهر حاول لمسها إلا أنها تمكنت من لجم الأمور. وعاهدت نفسها على تفادي أي احتكاك في المستقبل. وتمنت أن لا تظل تشعر بهذا الشغف إذا ما حصل شيء بالفعل. وأن تتوقف حاجتها للالتحام كلما جمعتهما غرفة واحدة.

لكن ديڤيد لم يبدُ منزعجاً من انجذابه المستمر لزوجته السابقة. فها هو يبتسم ويرنو إليها بفرح. لعنة الله عليه! شعرت بدموع الحرمان تلسع عينيها... هو لا يهمه البتة أنها لن تستطيع أبداً الاقتراب من رجل آخر بسببه! لا يهمّه أن تصبح في يوم ما امرأة عجوزاً بلا رفيق لأن لمسة أي رجل آخر لا تحرك فيها أي شعور.

وعلّق ديڤيد كما لو أنه قرأ أفكارها: «أجيبيني الآن بصدق، هل تفضلين صداقةً مع لورنس أم الحب معي أنا؟»

كان صوته دافئاً أجش، وتقدم ليعانقها من جديد وهو واثق من جوابها. ولكن اعتداده وثقته كانا القشة الأخيرة. فقالت بحذر وقسوة: «عرفت الحب معك وبرغم ذلك تركتك! هل أجبتك عل سؤالك؟»

أرخى يديه فوراً وبدا الألم واضحاً في عينيه حين

حدّق إليها منذهلاً من صدق كلماتها.

رأت حزنه فندمت على إيذائه وهتفت: «أوه ديڤيد... أنا آسفة! لم يكن هذا ما رميت إليه...»

«لا، لا، أنت على حق.»

شد قامته وتنفس بعمق وأردف قائلاً: «أنت مُصيبة تماماً، لقد تركتني بالفعل. لا أنكر ذلك.»

عاد يتنفس عميقاً. ومرّر أصابعه الرشيقة في شعره الأشقر: «حسناً، أظن أنك أجبت على سؤالي.»

التزمت الصمت وشعرتْ بالحقارة وببرودة أرض المطبخ تجلد قدميها الحافيتين وهي تقف عاجزة في منتصف الليل ونادمة لإيذائها المقصود.

طال الصمت حولهما. وسمعت الريح تهاجم البيت وتقرقع قوالب القرميد المخلخلة في سقف المرآب أما ديڤيد فكان يحدق في نقطة ما فوق كتفها. وبدا غارقاً في التفكير، ثم فتحت فمها لتقول أي شيء يملأ الفراغ المؤلم المحرج، ولكن ديڤيد سبقها وأعلن فجأة:

«إذا كانت الصداقة ما تريدين، فسوف نصبح صديقين!»

«ديڤيد...»

لكنه ابتعد عنها وسار ببطء وتعب إلى غرفة الجلوس وتناول معطفه. وفكرت كلير: إن أعوام عمره الخمسة والثلاثين تبدو واضحة عليه. وقد زال كل السحر الصبياني من محياه... لم يسعها إلا أن تراقبه بصمت، متمنيةً لو أنها أمسكت لسانها. ولو أن الحقيقة لا تكون مؤلمة إلى هذا الحد.

تقدمت بدورها ووقفت إلى جانبه وهي تقاوم رغبة في إزاحة خصلة الشعر التي هوت على جبينه. فرفع بصره إليها

وقال بتمهل وتركيز: «أنت زوجتي يا كلير.» وكأنه يحاول اختراقها إلى روحها. وأضاف قائلاً بعناية: «والآن ستكونين صديقتي.» استمر يحدق فيها، لكنه رفع يده وحكّ صدغه. وأكمل بابتسامة مغتصبة: «حسناً، سنجرب هذه الصداقة.»

فحاولت أن تبادله الابتسام وعجزت. راقب ديڤيد محاولتها الفاشلة فازدادت ابتسامته صدقاً وقال آخذاً يدها الصغيرة في يده: «هيا يا صديقتي، شيعيني إلى الباب مثلما يفعل الأصدقاء.»

فتحت له الباب واختبأت خلفه جزئياً لتحتمي من البرد. تمنت له ليلة طيّبة ووقفت على رؤوس أصابعها لتطبع على وجنته قبلة سريعة. فتضايق من بادرتها الأخوية، إلا أنه بادلها التحية بشجاعة وتركها تغلق الباب. ثم ارتقى الدرج ركضاً إلى شقته محاولاً ألاّ يفكر بأنه اضطر لترك زوجته وابنته في الشقة السفلية.

أطبقت كلير الرتاج وأسندت ظهرها بتعب إلى الباب. ولما نظرت إلى الساعة رأت أنه من الخير لها أن تأوي إلى الفراش. فيوم الاثنين لديها أعمال كثيرة مع زبائنها. وهذه الأعمال بحاجة إلى إعداد سيستغرق سحابة اليوم التالي. وعليها أن تستيقظ باكراً لتتمكن من الإنجاز. سارت إلى المطبخ لتطفىء النور ولكنها توقفت عن الضغط على الزر ليقينها بأنها لن تستطيع النوم... سوف تتقلب على فراشها وتفكر. وتتذكر كل مشهد من مشاهد نصف الساعة الماضية حتى توصل نفسها إلى شفير الجنون. من الخير لها أن تؤخر نومها حتى تهدأ أعصابها.

مشت إلى الثلاجة وفتحت بابها مستعرضةً محتوياتها. وفكرت وهي تُخرج قطعة الحلوى المتبقية بأن عليها أن تباشر حمية غذائية يوم الإثنين. أخرجت شوكة من الدُرج وتوجهت إلى غرفة الجلوس حيث تكوّرت على المقعد المنتفخ في إحدى الزوايا... إنها ما تزال تقرن هذا المقعد بديڤيد الذي كان يجلس عليه دائماً أثناء زواجهما زاعماً أن مكانه يعطي الضوء الأفضل بسبب قربه من النافذة الكبيرة القائمة في واجهة البيت. أما كلير فكانت ترى دائماً أنها بقعة باردة كون النافذة من الطراز القديم ذات لوح زجاجي واحد قد تشقق معجونه مع الوقت وسقطت منه قطع كبيرة. وتذكرت وهي تأكل آخر لقمة من الفطيرة بأن ديڤيد كان يَعِدُ دائماً بإصلاح الخلل. بل أنه ابتاع المعجون المطلوب ولكن الأنابيب ما تزال في المرآب على حد علمها - غير مفتوحة.

أسندت رأسها إلى ظهر المقعد واسترخت على الوسائد... في بداية الأمر لم تكن تتضايق من طبيعة ديڤيد الطليقة اللامبالية. بل تقبلتها لعلمها بأن الفنانين الخلاقين لا يزعجون أنفسهم بمشكلات عادية مثل النوافذ المشقوقة والمصارف المسدودة والفواتير - أو في الواقع حتى.

لكن من ناحية العمل كان يشتغل بجدّ ومثابرة. ودائماً كانت لديه وظيفة أو أكثر من واحدة في آنٍ معاً. أما مهنته وحُبّه الأول فكانت الكتابة، ولذلك لم يكن يركز جهوده على أعماله الخارجية أو يسعى ألى ترقيات، أو يتملّق رؤساءه. كانت وظائفه مجرد وظائف ليس أكثر. تأتي وتروح وفقاً لمزاجه. وهكذا أمّنَتْ هي بعض الثبات لمدخولها من خلال عملها كمحاسبة في مؤسسة كبيرة في المدينة. وكانا يتدبران

أمورهما دائماً. وينعمان بالحب والسعادة القصوى.

ولكن كل شيء تغيّر بُعَيْد مولد كاتي. فقد تركت كلير عملها وقتئذٍ لتبقى في البيت مع طفلتها. وفجأة أكتسب مدخولهما أهمية جديدة - أو بالأحرى قلة ذلك المدخول. أدركت آنذاك أن التغيّر حصل، بشكل رئيسي، في داخل نفسها. إذ شعرت بحاجتها إلى مزيدٍ من الاستقرار والأمان حالما حملت تلك المخلوقة الصغيرة العاجزة بين ذراعيها. وأدركت أن كاتي كانت تعتمد عليهما كلياً.

وهكذا بدأت تقلق، وتتذمر، وتصاب بصداع رهيب يضطرها للاستلقاء على فراشها ساعات طويلة... تحسست رأسها آلياً فأيقظتها هذه الحركة من استغراقها في التفكير. وقالت لنفسها بحزم: كل ذلك انطوى الآن ومضى... نهضت واقفة وحملت الطبق إلى المطبخ... كانت مصممة على أن تتخطى ديڤيد وتواصل حياتها. ومن الأكيد أن انجذابها الجسدي إليه. لا بدّ وأن يخفّ مع مرور الوقت. هذا ما أكدته لنفسها وهي تتجه إلى مخدعها.

حين تدثرت بالغطاء وارتاح رأسها على الوسادة. حاولت أن ترسم صورة للورنس في ذهنها. لورنس الثابت العطوف الذي يُمكن الاعتماد عليه. إنها بحاجة فعليّة للتفكير فيه وبعرضه الزواج منها. وفكرت فيه بالفعل، ولكن حين غلبها النعاس ظلت عيناها البنيتان تتظللان بعينين شديدتي الزرقة.

في الطابق الثالث، كان سهلاً على ديڤيد أن يحصر أفكاره في لورنس. فلقد عرف من كاتي أن ذلك التيس العجوز بدأ يتقرب جدياً من كلير. وهو في أي حال جدي وجامد

الشخصية. هكذا فكر بقرف وهو يفتح زجاجة عصير ويحدق بكرب من النافذة... كيف تقدر كلير أن تفكر في الارتباط بكهل مضجر... يعمل بائعاً للتجهيزات المكتبية؟ عبّ جرعة كبيرة من العصير وبدأ يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، ويحدث نفسه: أراهن على أن لورنس صديق ممتاز بالنسبة إليها... تريدنا أن نكون صديقين! كيف لرجل أن يصادق امرأة في حين أن قلبه وروحه يشكلان جزءاً من قلبها وروحها؟ كيف يُفترض منه أن يكون صديقاً عادياً مائعاً لامرأة مثل كلير؟ ألا ترى أن ما لديهما الآن لهو أكثر بكثير من الصداقة؟ ويبدو أنها لا ترى ذلك فهي أوضحت له بمنتهى القسوة بأنها اختارت تركه.

بالطبع هي كانت محقة في تركه. فكر بأسى وهو يقف ثانية أمام النافذة... كانا دائماً مفلسين فاضطرت للعمل بكدح. فأي حياة هذه بالنسبة لامرأة على غرار كلير؟ اختفت رقعة الشعاع على العشب في الفناء الخارجي عندما أطفأت كلير النور في غرفة الجلوس. فانتظر مراقباً حتى بدأ نور مخدعها يلقي وهجه على بقعة أخرى من العشب. ومضى يُذكّر نفسه. الأمور تغيرت الآن بالطبع، فالآن صار ثرياً، الآن هو... هاجمته الحقيقة بقوة فتجمد دفعة واحدة. أجل، إنه ثري. وراح ذهنه يصرخ فيه بأحرف كبيرة: أنت صاحب الكتاب الرقم واحد في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً! أنت المؤلف الذي اغتبرَ كتابه «كتاب الشهر!» لم يع هذه الحقيقة ربما كاملاً إلا الآن، إذ كانت الشهور الماضية دوّامة من النشاطات: ظهر ثلاث مرات على شاشة التلفزة، وأعطى عدداً لا يُحصى من الأحاديث الصحافية، وكان على اتصالٍ دائم بوكيل أعماله الذي قدّم له عروضاً

واتفاقيات جديدة... جلس مذهولاً على أحد المقاعد تاركاً زجاجة العصير تقبع منسيةً على حافة النافذة.

قال لنفسه بتفاؤل: «لعل كلير لم تجد الوقت أيضاً لتفكر بكل هذا... لعلها لم تدرك بعد بأن حياتهما الآن ستكون مختلفة تماماً عمّا كانت عليه... إن بارني، وكيل أعماله، كلّمه اليوم بالذات بشأن حقوق سينمائية، وأيضاً هناك عرض لدفع مبلغ مقدَّم لكتابه التالي... يا الله! إنه ليس ثرياً فحسب بل هو فاحش الثراء!

كسث وجهه ابتسامة عريضة ونظر بلهفة إلى ساعة يده. هل الوقت متأخر جداً لينزل ويراها؟ وما أن هبَّ واقفاً حتى تدثر الفناء الخارجي بظلام مفاجيء فعرف بأنها قد آوت إلى فراشها. لا بأس، فكّر باغتباط، غداً صباحاً أذكّرها بأن زوجها السابق ثري جداً ويقدر أن يوفّر لها حياة رائعة لا يعرفها لورنس العجوز إلا في الأحلام!

الفصل الثالث

لم يكن جرس المنبّه الذي أيقظها. كانت كلير تصحو وتغفو منذ أن دقّ في السادسة صباحاً. أجل، هي واثقة من أن شيئاً آخر نفذ إليها أخيراً وأيقظها...شيئاً رهيباً ورائعاً في آن.

حاولت جاهدةً أن تحمل ذهنها المترنح على التركيز... إنها رائحة لحم يُقلى على النار، ولا بدّ أن هذه الرائحة الرائعة هي التي أيقظتها. تنفست الهواء بعمق، والتصقت ثانيةً بالحرامات الدافئة. مُفكِّرةً بأنها منذ سنتين على الأقل لم تحظ بمتعة الاستيقاظ على هذه الرائحة اللذيذة.

وهذا ما كان رهيباً أيضاً! «كاتي!» هتفت برعب، وقفزت من الفراش بسرعة البرق. وعبرت الردهة ركضاً إلى المطبخ... فرن الغاز! لطفك يا إلهي! وتساءلت بذعر. بماذا يطفئون النار؟ بالطحين أم بالبيكينغ باودر؟ وهتفت: «كاتي! حذّرتك مراراً من إشعال...»

ثم وقفت فجأة في وسط المطبخ... كانت كاتي تقف آمنة على كرسي أمام المنضدة وذراعاها غارقتان بالطحين حتى مرفقيها. كذلك كانت نثرات الطحين الأبيض تزيّن أرض المطبخ والكرسي والمنضدة وكاتي، في حين وقف ديڤيد وراء ابنته يحاول متأخراً ربط أحد مراويلها حول بيجامتها المعفرة بالدقيق.

استدارا معاً لينظرا إليها وقد أجفلهما دخولها المباغت. وسارعت كاتي إلى القول: «ماما، إننا نصنع كعك الوفل من

المواد الأساسية.» ورفعت يديها المعفّرتين بفخر لتثبت كلامها.

فسارت كلير بضع خطوات واستندت بخَوَر إلى الثلاجة، وهي تحاول استرداد أنفاسها والتغلب على الصدمة التي أصابتها من جراء اعتقادها بأن طفلتها كانت تقلي لحماً. وقالت لهما أخيراً: «لدينا وفل في قسم التجليد.»

فردّ ديفيد بنبرة مستعلية: «تلك الأشياء المجلدة التي تباع في الحوانيت والتي تخبزينها في محمصة الخبز؟ إنها عديمة النكهة!»

عاد يُكمل ربط المريول، وأضاف بأسف: «يا للأشياء التي اضطر إلى إنقاذ هذه الطفلة منها!»

فحدجته كلير بنظرة عابسة وقالت بنبرة آمرة:

«عد إلى بيتك.»

لم يكن مزاجها صافياً لتتحمل مزاحه. كان الوقت باكراً جداً، ولديها عمل كثير يتطلب الإنجاز. وقالت لابنتها: «كاتي، يجب ألا تدخلي الناس إلى البيت من دون أن تطلبي إذني.»

فأجابت الطفلة بتعقل: «بابا ليس ناساً.»

«جواب في محله. أسمعتِ؟» ثم تناول فنجاناً من الخزانة وملأه بقهوة ساخنة وحمله إليها قائلاً بحزم: «اشربي، يبدو أنك بحاجة إلى قهوة.»

فمدت له لسانها وقالت: «لقد أرعبتماني، حسبتُ أن كاتي قررت أن تطهو لي الإفطار وتحمله إلى فراشي.»

«هذه فكرة ممتعة» ورقّص حاجبيه مُلَمِّحاً إلى الفراش.

ولكنها تجاهلت ذلك وقالت: «لم أكن أمزح معك. هيا، امضِ إلى شقتك وخذ طعامك معك. لديّ عمل كثير ولن

أتمكن من التركيز إذا أتخمت نفسي بحلواك.»

فقال يغريها: «وَفْلٌ مع الفريز الطازج والكريما... بيض مقليّ مُحَمَّر الجوانب كما تحبينه. ولحم طريّ...»

«كفى!» قالت متأوهة... إنها تكرهه وريجيمها يكرهه!

فتجاهل ضيقها إذ كان مهتماً بنزع الوفل الذهبي بلطف من بين دفتيّ المحمصة التي لا بدّ أنه جلبها معه كون كلير لا تملك أداة كهذه.

وما لبث أن نظر إليها عبر كتفه وقال مؤنباً ومخفياً ابتسامة ماكرة:

«كلير، أين لباقتك وسماحة نفسك كصديقة؟ أنا أحاول فقط أن أكون ودوداً.»

فتأوهت بصوت أعلى هذه المرة. وندمت لأنها ذكرت هذه الكلمة مساء أمس.

قال وهو يكدّس الوفل على طبق: «بعد قليل سيكون الفطور جاهزاً. من الأفضل أن تلبسي ثيابك فلقد سبق ورأيتك في هذا القميص.»

وللحظة قصيرة. وهو يقف أمامها مبتسماً، هوت الأعوام بعيداً وتذكرت صباحات أخرى وإفطارات أخرى فلم يسعها إلا أن تبادله الابتسام، وتشعر فجأة بزوال تعبها ونكد مزاجها. ثم لماذا تهتم الآن بالريجيم؟ إن بضع وحدات حرارية أخرى لن تضيرها.

استدارت بخضوع وعادت إلى مخدعها حيث نزعت قميص النوم وارتدت كنزة قطنية ذات لون زهري زاهٍ، ثم ارتدت بنطال جينز باهتاً وانتعلت حذاء كرة المضرب. ولما سرّحت شعرها بتسريحة ذيل الفرس وربطته بشريطة زهرية شعرت بأنها باتت

جاهزة لتواجه أي شيء - إفطاراً دسماً وزوجاً سابقاً فائق السحر، وحقيبة ملأى بأوراق العمل.

ولكن حين جلس ثلاثتهم إلى المائدة - يأكلون ويتحدثون ويتمازحون، حاولت ألاّ تفكر بمدى الراحة والانطلاق اللذين يسودان اجتماعهم معاً، وتمنت ألا يبدو ديڤيد وكأنه يفكر مثلها. كان يراقبهما وهما تلتهمان الطعام الذي طهاه. بسيماء رجل سعيد يعرف بأن عائلته تعطيه حقه من التقدير - سيماء رجل عاد إلى بيته.

وقال وكأنه قرأ أفكارها: «يجب أن نكثر من هذه المناسبات، فالنساء اللواتي كنت أطهو لهنّ الطعام مؤخراً كنّ يراعين الريجيم باستمرار، وهذا أمر يثبط العزيمة.» هز رأسه بأسى ثم هتف بحماسة: «لديّ فكرة! لماذا لا نذهب إلى المنتزه ونتزلج على الجليد؟ فالبركة ستظل مجلّدة أسبوعاً على الأقل.»

فأخذت كاتي تقفز بانفعال ولكن كلير بدأت تهز رأسها قبل أن يكمل كلامه. فقال يحثها متملقاً: «هيا، جميعنا بحاجة إلى الرياضة بعد هذا الإفطار، بوسعك أن تؤجلي عملك إلى ما بعد الظهر.»

فحدقت فيه بدهشة وقالت: «أؤجله؟ ماذا دهاك يا ديڤيد؟ ألم تنظر مؤخراً إلى روزنامتك؟ ألا تعرف في أي يوم نحن؟»

«الأحد.»

«أقصد التاريخ.»

«الثاني عشر من نيسان/إبريل.»

فقالت بصبر نافد: «ألم تسمع بمصلحة الضرائب الداخلية؟ ألا تعني لك شيئاً؟ أنا محاسبة قانونية يا ديڤيد. وحياتي تدور...»

فقاطعها وهو يلوّح بالشوكة بانتصار: «الخامس عشر من نيسان! آسف، نسيت أنه موعد الضرائب وما إلى ذلك.»

فقالت وهي تتناول فنجان القهوة: «بالمناسبة، طلبتُ منك أن تجمع بيانات العجالات خاصتك وإيصالات المصاريف، فهل فعلت ذلك؟ أنا لن أصرف مساء الأربعاء في حسابة ضرائبك مثلما فعلت العام الماضي، لن أركض كالمجنونة إلى مكتب البريد عند منتصف الليل! فلديّ زبائن آخرون يشغلونني بما فيه الكفاية. زبائن يدفعون لي أتعابي.»

فسألها وقد شعر بالندم: «هل تحتاجين بعض المال؟»

نهض واقفاً ودس يده في جيبه وتابع: «الشهر الماضي دفعتُ نفقة الطفلة. أليس كذلك؟ كذلك دفعت بدل إيجاري.»

أخرج من جيبه لُفَيفة أوراقٍ ماليةٍ من فئة المئة دولار ومعها بعض من فئة الدولار.

هزت رأسها بضيق. هي تعرف أن سبب بلادته في الدفع يعود إلى فوضويته لا إلى قلّة ماله. وقالت له: «كلا، لا أحتاج مالاً. تعلم أني أتقاضى أكثر منك - أو بالأحرى كنت أفعل قبل أن يربح كتابك.»

فرفع رأسه وخطر له أن هذه هي اللحظة المناسبة لإعلامها بالواقع الذي تكشف له ليلة أمس، فقال:

«وددت أن أحدثك عن... عن المال.»

ثم وضع مئتي دولار على الطاولة ودس البقية في جيبه. فسألته وهي تنهض واقفة: «ماذا عنه؟»

بدأت ترفع الأطباق متجاهلةً عن قصد، المال الذي وضعه هناك. فبعد مبيع كتابه ضاعف مدفوعات النفقة والإيجار وما عادت بحاجة للمزيد من ماله. وأجابها:

«وددت التكلم عن الكمية التي أملكها. أتعرفين كم أملك؟»

حملت كدسة أطباق إلى المجلى وردّت بواقعية:

«أعرف ثروتك بالضبط، أنسيت بأني المحاسبة خاصتك؟ وإذا رغبت في هدر بعض مالك على أصدقائك الخائبين فلن تجد إلى ذلك سبيلاً لأني وظّفتُ ما تبقى من شيك جُعالتك الأخير في سند طويل الأمد.»

بدأت تغسل الأطباق وتابعت شرحها: «أما معظم مالك فتحوّل سندات خزينة بفائدة معقولة. وقد أوظّف مبلغاً آخر في سندات البلدية فهي آمنة وقليلة الضرائب...» سكتت بغتة ثم استدارت تنظر إليه بارتياب وتسأل: «لماذا هذا الاهتمام المفاجيء بمالك؟»

فتنهد بضيق متمنياً لو أنها تكفّ عن التعامل مع المال بكل هذه الدقة والحرفية. ثم قال: «لم أقصد طريقة توظيفه فأنا أعرف بأنك تهتمين جيداً بهذه الأمور. وافترض بأن كاتي سترث ثروة عندما أموت.»

«هل ستموت يا بابا؟» سألته كاتي بنظرة قلقة ثم حنت رأسها وأخذت تلعق الكريما من صحنها.

فسحب ديڤيد الطبق من تحت لسانها البارز وقال يطمئنها: «لن أموت أبداً يا حلوتي، ما رأيك أن تلعبي في غرفتك؟ أريد أن أكلّم أمك في قضايا تخص الكبار.» فنقلت بصرها بينهما ثم قالت: «حسناً، سأذهب، ولكن إيّاكما والشجار، هل تفهمان؟ يبدو أني لا أستطيع تركككما بمفردكما دقيقة واحدة!»

فمنعت كلير نفسها عن الابتسام وقالت لها بصرامة: «صرت لاذعة اللسان في المدة الأخيرة، أيتها السيدة الصغيرة.»

فردّت عليها بوقار: «أظنني بحاجة لتأثير أب يحفظ التوازن.»

«يحفظ التوازن! يا للهراء!»

أدركت أن كاتي لم تأتي بهذا التعبير من عندها، ولمّا أدار ديڤيد ظهره بسرعة لكتم ضحكة تأكدت بأن الطفلة سمعت التعبير منه... مسحت وجه كاتي الدبق بخرقة مبللة وأمرتها قائلة: «هيا، انصرفي يا صغيرة، وإذا أردت مشاهدة التلفاز فراعي أن تشاهدي برنامجاً تربوياً، أسمعت؟»

غادرت كاتي المطبخ قفزاً وسرعان ما سمعت كلير صوت التلفاز. وقال ديڤيد محاولاً العودة إلى الموضوع: «كنت أقصد أن أسأل ما يلي: هل تعرفين كم أستطيع أن أصرف؟»

«كثيراً! بالمناسبة، هل عرضوا عليك سلفة مالية لكتابك الثاني؟»

وهُنا شعر برغبة في إغاظتها قليلاً، فهي تتعامل بمادية متناهية مع العمل الكتابي الذي يعتبره هو فناً. ولذلك قال بهدوء: «لست متأكداً من أنه سيكون هناك كتاب آخر، فلقد كتبت القصة الوحيدة التي كانت لديّ.»

فهتفت بانصدام عميق جمّد يديها في الهواء: «ديڤيد! لا يمكن أن تكون جاداً، فلديك ملفّات ملأى بالحبكات القصصية والشخصيات و...»

فقاطعها قائلاً: «أتذكرين رواية هاربر لي «لتقتل طائراً مُقلِّداً» والتي نالت جائزة بوليتسر؟ حسناً، كانت تلك الرواية كتابها الأول والأخير.»

«وكتابك «خُضرة الربيع» كان أفضل رواية بوليسية قرأتها، إنّما لم تكن بمستوى جوائز بوليتسر، وأنت تعرف ذلك! ثم إننا

لسنا بصدد هذا الموضوع... أنت كاتب مرغوب جداً هذه الأيام، والناس ستبتاع أي كتاب تؤلفه، أنت...»

أضحكته حماستها المفرطة وقاطعها قائلاً: «اهدئي يا كلير، كنت أحاول فقط أن أغيظك، والحقيقة هي أنني أوشكت على الإنتهاء من نصف المغامرة الثانية لبطلنا التحري المفضل.»

وهنا قذفته بالخرقة المبللة فحنى رأسه بسرعة ثم ركض كالبرق ليمسك بالخرقة قبل أن تسقط في زبدية العجين. ثم وقف بقربها وتابع كلامه: «وقريباً سيعطونني شيكاً بمبلغ ضخم ليشجعوني على إنجاز الكتاب.» وذكر رقماً مالياً ضخماً جعلها تفتح عينيها دهشة وتهتف:

«أنت تمزح!»

«أمر رائع ومؤثر، أليس كذلك؟ هذا ما وددت أن أبحثه معك. كيف سنصرف هذه الثروة؟»

ثم سكب قهوة في فنجانين نظيفين وقادها إلى الطاولة فسألته وهي تجلس على الكرسي: «لماذا تتكلم بصيغة المُثَنّى؟ أنا لا شأن لي بصرف مالك.»

فتنهد وقال: «لقد فاتك بيت القصيد يا كلير، إننا نتكلم عن المال! المال الذي بت أملكه.»

«إذن؟»

«إذن، ألم يكن المال سبب مشاجراتنا المستمرة عندما كنا متزوجين؟»

«أجل، كان موّالاً يتكرر.»

«إذن، قلة المال كانت مشلكة زواجنا، أما الآن فما عادت مشكلة.»

أدركت فوراً ما يرمي إليه. فخبطت الفنجان على الطاولة ورفعت يدها لتمنعه من متابعة كلامه وقالت بحدة:

«على رسلك يا ديفيد! لم يكن المال مشكلة زواجنا، كان مجرد واحدة من عدّة مشكلات!»

فمال صوبها وقال بانفعال: «ولكن تصوّري كيف سيتغيّر الحال الآن. سنتمكن من السفر إلى أوروبا والشرق الأقصى! سنتمكن أخيراً من إصلاح البيت - لا، بوسعنا أن نبيعه وننتقل إلى... إلى أي مكان! إلى هاواي! كنت ترغبين دائماً في رؤية المكان الذي وُلدت فيه جدتك الكبرى! بوسعنا أن نبتاع بيتاً شتوياً في هاواي! ونقدر أيضاً أن...»

فقاطعته بجفاف: «تلك كانت المشكلة.»

«ماذا؟» لم يفهم بسرعة، فقالت موضحة: «بيع البيت، الانتقال، الأحلام، المشاريع، الخطط، كل تلك الأمور كانت مغامرة بالنسبة إليك، أما بالنسبة إليّ فلم تكن سوى افتقار للأمان.» وعلى الرغم منها، وجدت صوتها يكتسب النبرة الناقدة المتذمرة القديمة حين تابعت تقول: «كنتُ دائماً أتساءل بقلق متى ستطلع بمشروع أرعن آخر تصرف عليه مدخراتنا. كنتُ أتساءل بقلق متى ستضجر من عملك وتتركه من دون أن تفكر كيف سنبتاع الطعام إذا ما فعلت! لم تكن قلّة المال السبب الحقيقي لشجارنا، بل انعدام الأمان بالنسبة إليّ ولكاتي وللمستقبل.»

توقفت لتستجمع أنفاسها فسألها بهدوء: «هل كنتُ سيئاً إلى هذا الحد؟ لا أظن ذلك، فلقد تمكنا دائماً من تدبير أمورنا وكنت أؤمن إعالتنا.»

«بالطبع فعلت ذلك. أنا لا أحاول تشويه تلك الأعوام التي عشناها معاً. أقصد فقط...»

فاعترضها بسخرية: «وبالتالي، أظن أن لورنس يستطيع تزويدك بهذا الأمان الثمين؟»

فردّت بتوكيد وقد لاح الغضب في عينيها الخضراوين: «بوسعي أن أوفر لنفسي متى زال قلقي وخشيتي من تصرفك التالي!»

لم تكن تحاول إيذاءه - إنما تلومه. لم يتحدثا هكذا منذ أمد بعيد، ولم تشأ أن ينتهي الحوار بصراخ متبادل. من المهم أن تجعله يفهم ما ترمي إليه بالضبط. فقالت بعناية: «أنا لا أتكلم عن الأمان المادي، فهناك الأمان العاطفي أيضاً.»

«يعني؟»

فقالت بعد تردد: «سأعطيك مثلاً: رحلتك الزورقية إلى ألاسكا! لم يكن الأدهى أنك أخذت كل ما كان لدينا من نقود لتدفع تكاليفها. ولكنك تركتني مع طفلة رضيعة وانطلقت إلى سمائك الجليدية من دون أن يخطر لك إطلاقاً جواز تعرضك لحادث ما، أو أني قد أترمل وأكافح للاهتمام بأمري وأمرها. كان من الجائز أن تُقتل ولا أعرف الخبر لأسابيع طويلة! لقد تعمدتَ أن تضع نفسك في ظرف خطر من دون أن تهتم بأحد سوى نفسك!»

فتململ على كرسيه وقال: «أوه، كلير، كانت الرحلة آمنة جداً. كانت فرصة نادرة، وكان جو دليلاً ماهراً. ثم إن ذلك الدب لم يقترب منا كثيراً!»

«الدب! أي دب؟»

«ضربة قوية على أنفه وعدا هارباً.»

فكررت: «أي دب؟»

«ألم أحدثك بقصته؟ أوه، لا عليك منها.» لوّح بيده مُنهياً

موضوع الدب، وقال: «فهمتُ وجهة نظرك، وأنت محقة تماماً كعهدك دائماً.» لانت قسمات وجهه وتخلّى عن وضعه الدفاعي. ابتسم لها وعاد يقول بصوت مُقْنع: «ولكنك ستحصلين الآن على الأمان. كل أنواع الضمان! سيكون لك الأمان المادي وضمان الشيخوخة، وأنا سأكون لك، أقبع في البيت سالماً إلاّ من خطر الإشعاع الناجم عن الكومبيوتر خاصتي.»

ولكنها هزّت رأسها، فهو لم يفهم بعد.

فسارع إلى القول بلهفة: «فكّري بكاتي! كيف يمكنك القول بأنك لا تريدين لها حياة أفضل؟»

فهتفت: «إنك تدللها إلى حد الإتلاف! لقد أسستُ لها ودائع لتظل مؤمنةً مادياً على أفضل وجه. هي لا تحتاج الآن لأن تعيش كطفلة غنيّة مدلّلة.»

وهنا فَقَد صبره فنهض وقال بغضب: «هذا عناد منك وحقد و...»

فوقفت وواجهته بغضب مماثل: «وأنت تحاول استعادة زواج عن طريق شرائه!»

كان صوتاهما قد ارتفعا إلى حد الصراخ. وصاح ديفيد: «على الأقل، أنا...»

وفجأة تناهى إليهما صوت كاتي من غرفة الجلوس: «طلبت منكما ألاّ تتشاجرا ووعدتماني بذلك!»

فشعرا بالذنب وهما يتبادلان النظر وهتف ديفيد مجيباً الطفلة: «لا بأس يا حبيبتي. يؤسفنا أننا أزعجناك.»

ثم أطلق زفرة عميقة ومرّر يده في شعره محاولاً تهدئة نفسه. وقال لكلير: «آسف، حسبت... أن نجاح الكتاب، ووفرة

المال وكل ذلك كفيل بتغيير الأمور.»

فراعت أن تتجاوب بمجامع قلبها، إذ كيف تقدر أن تدير له ظهرها؟ ولكنها لا تقدر أيضاً على أن تلبي رغبته...

«أنا لا أريد تغيير الأمور يا ديڤيد، أريدنا نحن أن نتغيّر.»

فردّ بوجوم: «أجل، تريدين الصداقة. من المفروض أن نكون صديقين.»

«صداقتك ستعني لي أكثر مما سيعني لي مالك.»

كانت جادّة في كلامها. واستطاع أن يرى ذلك في عينيها وأن يسمع الصدق في صوتها، الأمر الذي أوقعه في حيرة شديدة.

أنجزا تنظيف المطبخ ثم أخذ ديڤيد محمصته وابنته وتركاها بمفردها لتركز على حسابات زبائنها. عملت بجدّ مدى ساعتين. وكانت آلة الجمع خاصتها تطلق لفافات طويلة من الأرقام المطبوعة، لا تفتأ تنزلق من على الطاولة وتتكوم عند قدميها. كانت الشمس تتقدم ببطء على أرضية الغرفة حتى وصلت أخيراً إلى حيث تجلس وأرسلت نورها الذهبي على الأوراق، الأمر الذي قطع عليها تركيزها وجعلها ترفع رأسها وتنظر إلى النافذة تلقائياً. كانت غيوم الليل الفائت تتبدد بسرعة فيما الشمس الواهنة تبذل أقصى جهدها لتذيب الثلج الذي أطال مكوثه على الناحية الشمالية للفناء. وقفت وتمطّت ورمقت اللفافات المتشابكة باستياء إذ سوف تزداد طولاً قبل أن تنتهي من عملها. قامت ببعض التمارين الرياضية لتجدد دورتها الدموية.

ثم تنهدت وعادت إلى كرسيّها مُكرهة. شربت جرعة من

القهوة الباردة. وعبثتْ قليلاً بقلمها، وعدّلتْ كدسة الأوراق. ولكنها ما لبثت أن رمت القلم جانباً ونهضت واقفة إذ قررت أن تقوم بنزهة على القدمين قبل أن تقرر الشمس الاحتجاب كلياً. ارتدت السترة واختطفت مفاتيح الشقة وتوجهت إلى الباب.

وما أن انغلق خلفها حتى سمعت طقطقة مماثلة فوقها. رفعت بصرها إلى باب الشقة في الطابق الثاني الذي أجّرته مؤخراً لكابتن متقاعد من سلاح الجوّ. والآن رأت زوجته تسحب المفتاح من القفل ثم تهبط الدرج صوبها. فلم يسعها إلا أن تحدّق في المرأة المقتربة منها.

كانت نعومي ماكسويل في أوائل خمسيناتها، ذات جسد يوحي بأنها أصغر من ذلك بنحو خمس عشرة سنة. كانت ترتدي لباساً ضيقاً خاصاً للهرولة ذا لون قرمزي لمّاع، وفوقه قميص قطنيّ منزوع الكُمّين وفقاً للموضة السائدة. أما رأسها فكان ملفوفاً بعصابة لامتصاص العَرق ذات لون أخضر يتغاير تماماً مع شعرها الأحمر الصباغ، وكان وجهها مزيّناً بعناية وعلى نحو لا يليق برياضة صباحية، وحين رفعت ذراعيها لتثبت سمّاعتي آلة الكاسيت على أذنيها لاحظت كلير أظافرها المطلية بلون زهري فاقع.

قالت تحييها بأدب: «مرحبا سيدة ماكسويل.»

فأجابتها المرأة وهي تهبط سائر الدرجات قفزاً: «أرجوك أن تناديني نعومي، فالسيدة ماكسويل هي والدة الكابتن، وحتى هو يخاطبها بهذا اللقب.»

فضحكت كلير وعلّقت: «خسارة ألاّ نستفيد من حرارة الشمس. إني أتشوق لحلول الربيع.»

«وأنا كذلك، فالكهول المتقاعدون أمثالنا يجب أن يقيموا

في ولاية فلوريدا لا في مينيسوتا.» ثم بدأت تقفز بخفة استعداداً للهرولة، وسألت كلير: «هل تودين أن تشاركيني رياضتي؟»

فضحكت كلير ثانيةً. في نهاية الأسبوع الماضي كانت عائدة بسيارتها إلى البيت ومرّت آنذاك بنعومي التي كانت تركض بخطى محترفة من دون أن يبدو عليها أي اجهاد وأجابتها الآن: «كلا، شكراً. أنا أفضل رياضة السير الحثيث.»

فردّت الأخرى بطيب نفس: «لا بأس بالسير الحثيث. هل لي أن أسير معك مسافة معيّنة؟ ذلك سيفيدني في الاستعداد للهرولة. لا سيّما وأنا ما زلت أعاني من ألم قديم في باطن ركبتي.»

فوافقت كلير بترحيب وبدأتا مسيرتهما على الرصيف، وزودتها كلير بتعريفات موجزة عن أسماء بعض الجيران وأرفقتها بالأخبار التي يتناقلها الناس عنهم. وإضافة إلى ذلك استمتعتا بمحاولة البحث عن تباشير الربيع في مساكب الأزهار التابعة للبيوت القديمة.

ثم سألتها كلير وهي تشير إلى نبتة زعفران صغيرة مستترة تحت شجيرة ليلك: «هل أعجبتك المنطقة؟ ألديك مشكلات معيّنة في الشقة؟ هل أقدر أن أفعل شيئاً يؤمن لك راحة أكبر؟»

«إننا في أحسن حال من الاستقرار، ونحب هذه الجيرة، إنها هادئة جداً ولم تكتظ بعدُ بالكلاب والأولاد.» قالت ذلك وهي ترمق كلباً كان يجري في فناء أحد البيوت الجديدة التي أضيفت إلى الحيّ.

«أرجو ألا تكون كاتي كثيرة الحركة والضجيج فهذه البيوت القديمة لا تعزل الأصوات كما يجب.»

«لا تقلقي فابنتك الصغيرة في منتهى الحلاوة. لقد زارتنا

مرتين.» وقفت عند أحدى الزوايا حيث جثمت قليلاً لتربط شريط حذائها ثم أضافت بنبرة عرضية: «كذلك زارنا الرجل الذي يسكن فوقنا، ديڤيد أولسون.» ثم نظرت إلى كلير ببراءة وأكملت: «انه يبدو في غاية اللطف، بل أنه ساحر.»

«أجل، إنه رجل لطيف.»

«لقد انسجم مع زوجي تمام الانسجام.»

تابعتا سيرهما ولكن كلير رأت المرأة ترنو إليها من طرف عينها بتأمل. وتابعت نعومي بعدما قطعتا مسافة أخرى قصيرة: «إنه يكتب، أليس كذلك؟»

«أجل.»

«لم ألتق بعد بكاتب شهير. منذ أسبوعين رأيته على شاشة التلفاز وكان عظيماً، لقد سحر الجمهور بقوة حضوره.»

«أجل، كان رائعاً.» وافقتها كلير كونها شاهدت هذا البرنامج. سارتا بصمت لبعض الوقت، ولكن كلير شعرت بنظرات نعومي الفضولية، وأدركت بأنها كانت تتحرق شوقاً لتعرف الأجوبة على بعض الأسئلة الشخصية، على سبيل المثال: لماذا تحمل كلير وديڤيد إسماً عائلياً واحداً؟ لماذا تشبه عينا كاتي اللوزيتان عينيّ أمها، في حين أنهما زرقاوان مثل عيني ديڤيد؟ ولماذا تركض الطفلة جيئة وذهاباً بين الشقتين وتعتبر كلا البيتين بيتها؟

وأخيراً لم تستطع نعومي صبراً فقالت بصراحة: «إن إحدى حسنات التقدم في السن هي استطاعتنا طرح أسئلة فضولية لا دخل لنا فيها إطلاقاً... أنا كنت أتساءل...»

فضحكت كلير وقالت: «إننا مطلقان.»

«آه... هذا يفسر اللغز! أقصد أني سمعت بزوجات وأزواج

ينامون في مخادع منفصلة ولكن ليس في شقق منفصلة. خطر لي بالطبع أنه قد يحتاج شقة خاصة كونه مؤلفاً فنّاناً وبرغم ذلك بدا الأمر غريباً.»

فقالت كلير مُوضحة: «عندما طلبت من ديڤيد أن يغادر البيت صادف أن الطابق الثالث كان شاغراً. وبما أني كنت بحاجة إلى المدخول وكان هو بحاجة لشقة رخيصة الإيجار - إضافة إلى رغبتنا المشتركة في أن يَبقى قريباً من كاتي. فقد أجّرته الشقة مؤقتاً ريثما يجد مكاناً أفضل - ولكن مرّت سنتان الآن وكان ترتيباً ناجحاً. إنما قد يرغب الآن في الانتقال إلى بيت عصري بعدما نال كتابه كل هذا النجاح.»

وجدت نفسها تعبس لدى نُطقها هذه الكلمات، فهي لم تفكر أبداً من قبل بأن ديڤيد يستطيع الانتقال إلى أفخم شقة في المدينة... بل في مطلق مكان! قد يقرّر الانتقال إلى نيويورك ليكون قريباً من وكيل أعماله ودار النشر... قد...

«المعذرة؟» وعت بأنها لم تكن تصغي لحديث نعومي.

«كنت أقول إن قلّة من الزوجات والأزواج المطلّقين تستطيع العيش بسعادة بقرب بعضهما البعض.»

فأجابت كلير بسخرية: «إن ديڤيد يتظاهر بأننا ما زلنا متزوجين، وأرجح بأن كاتي تتظاهر مثله. قد يكون من الأفضل للجميع أن يغيّر مكان سكنه، فلعلنا نتمكن عندئذٍ من بذل مجهود حقيقي لفتح صفحات جديدة...»

توقفت إذ رأيت نعومي ترمقها من جديد بنظرات غريبة، ولكن نعومي لم تعلّق على آرائها العجيبة واكتفت بالقول:

«لقد استطعتما أن تكونا صديقين، وهذا شيء جميل في نظري.»

فقالت كلير في نفسها بسخرية: «صديقان! بحياتنا ما كنا كذلك. وإلا لما تطلقنا... أو تكون صداقتنا مستطاعة؟ ونحن مطلقان. يجب أن أفكر بهذا الأمر في ما بعد. وعادت تصغي إلى نعومي:

«يذكرني ديڤيد بصديق قديم كان اسمه توماس - أوه، نسيت اسم عائلته... على أي حال، كان شاباً وسيماً جداً، سريع الخاطر ذلق اللسان، تنجذب إليه الفتيات بجنون. ثم ظهر الكابتن في حياتي، الكابتن المضجر الخشن اللسان، ومن حينها نسيت توماس ذلك كلياً. صحيح أن الرجال أمثال توماس يغتنون ويأسرون، إلا أنهم مثل الحلوى بعد الطعام. ألا تظنين ذلك؟» نظرت إلى كلير نظرة ثاقبة وتابعت: «من الجائز أن تشتهيهم إلى حد سيلان لعابك ولكنهم لا يشبعونك أبداً. فأنت إذا أضطررت لأن تأكلي الحلوى ثلاث مرات في اليوم، ويوماً بعد آخر فستشعرين فجأة بتقديرك وتوقك للحم والبطاطا القديمين المضجرين. أنت تفهمين ما أعني؟

«أجل، فهمت.» ولكن كلير ابتسمت بينما وبين نفسها إذ تصوّرت كيف سيضحك ديڤيد عندما تخبره بأن نعومي شبّهته بالحلوى. وما لبثت أن تعقلت... لا، لن تخبره ذلك كيلا تعطيه فرصة ليذكرها بحبها الكبير لأكل الحلوى.

الفصل الرابع

في الثامنة مساء شيّعت كلير آخر زبائنها إلى باب البيت وتنهدت بارتياح بعد إغلاقه. عادت بخطى متعبة إلى طاولة المكتب وقطعت التيّار الكهربائي عن آلة الجمع للمرة الأولى منذ شروق الشمس. صرفت بضع دقائق في ترتيب الأوراق المشوشة على سطح الطاولة ثم نزعت بحزم الصفحة العليا من التقويم المكشوف. وغضّنت تاريخ الخامس عشر من نيسان/ إبريل إلى كُرَة صغيرة ورمتها في سلة المهملات الطافحة بالأوراق... سنة ضرائبية أخرى تمر بسلام!

أخيراً، أطفأت مصباح الطاولة فأظلم المخدع الإضافي الذي تستعمله مكتباً... لقد حان الوقت لجلب كاتي المسكينة إذ لم ترها إلا لماما في الأيام الثلاثة المنصرمة... سارعت كلير إلى مغادرة الشقة وبدأت تصعد الدرج، وهي تحمد الله على أن لديها زوجاً سابقاً يعيش في البناء نفسه. وكلنها سرعان ما عبست حين وعت مغبّة ذلك... كان ديڤيد، في الأيام الأخيرة، يأتي بكاتي من روضة الأطفال ويبقيها لديه حتى تنتهي هي من عملها. كذلك اعتاد أن يهيء لهم جميعاً طعام العشاء بحجة أن كاتي تحتاج عشاءً أكثر تغذية من أطعمة الحبوب... لقد انغمست كثيراً في عملها فلم تُلقِ بالاً إلى الجوّ العائلي الدافيء الذي ساد حياتهم مؤخراً. ولكن الوقت حان لتضع حدّاً لذلك كيلا يتشجع ديڤيد على المضيّ في خطته السخيفة الرامية إلى إنهاء نزاعهما. وهنا عاهدت نفسها على أن تبذل جهداً لإعادة المياه

إلى طبيعتها السابقة... أجل، لم يعد الآن ما يُشغلها كثيراً، وستؤمن عودة كل منهما إلى شقته الخاصة.

وصلت إلى الطابق الثالث وفتحت الباب من دون أن تقرعه، فهذه عادة درجت عليها مؤخراً بشكل ما. كان ديڤيد أمام الموقد يحرك طعاماً على النار، والتفت إليها لدى دخولها. وقالت تحدث نفسها لمّا رأت ابتسامته العريضة: كلا!لن أرض بذلك! إنه يبدو شديد الارتياح وكأنه ينفّذ بنجاح مراحل خطة أرفض أن أكون طرفاً فيها!

وقال لها: «لحظات وتكون السباغيتي جاهزة. سباغيتي غير معلّبة!» وشرع يُسقط عيدان المعكرونة في الماء، كل حزمة بدورها. لقد قرأت في مجلة ما، أنه من المفروض سلق المعكرونة على هذا النحو، لا أن تُلقى في الماء المغلي دفعة واحدة مثلما تفعل هي.

نظرت إلى ما حولها تبحث عن كاتي ثم جلست إلى الطاولة ولاحظت أنها مَعَدّة لشخصين.

«أين كاتي؟»

«نامت بسرعة. حاولتُ بشدة مقاومة النعاس ولكن بعدما أطعمتها واستحممتُ استسلمتُ لسلطان النوم. ما رأيك أن تتركيها الليلة عندي؟»

أومأت موافقة، ووعت بألم بأنها لم تكد ترى كاتي منذ الصباح الباكر... من المؤكد أن الوقت حان لتعود مع ابنتها إلى رتابتهما السابقة. ولن تموتا جوعاً إذا لم يطبخ لهما ديڤيد، مع أن رائحة الصلصة كانت مثيرة للشهية، اضطرت للإقرار بهذه الحقيقة حين رفع ديڤيد الغطاء ليحرك الصلصة وانبعثت رائحتها العطرة في أرجاء المطبخ. بدا راضياً عن النتيجة

فأعاد الغطاء إلى مكانه ثم سار إلى المنضدة وتناول زجاجة شراب ما لبث أن فتحها بمهارة وسكب شراباً في كأسين.

تناولت كلير كأسها بامتنان فيما رفع ديڤيد كأسه صوبها وقال: «نخب مصلحة الضرائب الداخلية.»

«مرحى لمصلحة الضرائب!» ثم شربت جرعتين وأعلنت:

«أكاد أموت جوعاً. متى سترنّ ساعة التوقيت؟»

«ترن؟ يا عزيزتي كلير، إن المعكرونة لا تُطهى بواسطة جرس، بل عن طريق التذوق.» ثم سار إلى الموقد والتقط شوكة وراح يصطاد في الماء المغلي حتى أمسك بحبل معكرونة. وبعدما وضعه في فمه وتذوقه بتأن، أعلن بفخر:

«ستنضج بعد أربع دقائق.»

فقالت له بصرامة: «أنت مغرم بالتباهي.»

«صحيح. وأنت طاهية فاشلة.»

«صحيح. أنا كذلك.» ابتسمت وبدأ تعبها يزول، ولما امتلأت معدتها بعد نصف ساعة شعرت بتحسن أكثر.

لاحظ ديڤيد ارتياحها النفسي فقطع الصمت الذي ران عليهما أثناء العشاء وسألها: «أين تودين أن تذهبي مساء غد لنحتفل؟»

«الطريقة الوحيدة لاحتفالي بانتهاء الموسم الضرائبي هي الاستحمام والنوم باكراً.»

«قصدت الاحتفال بعيدنا.»

«ولكننا تزوجنا في أيلول/سبتمبر.»

ولمّا رأى الحيرة تستبد بمحياها أضاف بتأن: «عنيت عيد طلاقنا. غداً يطابق ذكرى اليوم الذي طردتني فيه، قبل سنتين... إن كنت تتذكرين؟»

«بالطبع أتذكر. كانت مرّة وانتهى أمرها.»

«بالضبط! خطر لي أنه يتوجب علينا الاحتفال بمناسبة خطيرة كهذه.»

فعبست بقرف وعلّقت: «هذه فكرة سقيمة فالناس لا يحتفلون بالطلاق.»

«صحيح. وكلمة احتفال قد لا تعبّر تماماً عن معناها. ربما قصدتُ أن نُجلّ عيد طلاقنا... أن نعبّر عن شكرنا له... أن نُحيي ذكراه... أتريدين أن أجلب قاموسي؟»

فردّت بجفاف: «كلا، فهمت الفكرة، وأظنها فكرة سخيفة.»

لم يخفف فتورها حماسته: «أنت متعبة الآن. ولكن عندما تستيقظين صباحاً ستجدين نفسك متشوقة لارتداء ثوب جميل ولقضاء سهرة عشاءٍ ورقص برفقتي.»

«أحقاً؟»

«أجل، خصوصاً إذا قلت إننا سنتعشى في مطعم البستان.»

فاتسعت عيناها دهشة إذ تأثرت على الرغم منها باسم المطعم الأكثر غلاء وفخامة في المدينة. وعلّقت قائلة:

«يا للأبهة! إذن تريدني أن أسهر معك هناك حيث نختلط بالأثرياء والمشاهير.»

«بل أريد سهرة اختلط فيها معك أنت. أتذكرين إلى أي حد كنا نندمج معاً؟»

ثم قفز واقفاً وجذبها برشاقة إلى صدره. وطفق يراقصها على أرضية المطبخ مدندناً مزيجاً مرحاً من ألحان الرومبا والتشاتشا. وحين اقترب من الثلاجة ثنى جسمها إلى الوراء حتى لامس شعرها الطويل الأرض. ثم قرّب وجهه من محيّاها وهتف لحناً ختامياً وقال: «لقد نسيت كم كنّا بارعين في الرقص!»

فلم تستطع كلير أن توقف الضحك الذي تفجر من داخلها. كان يقدر دائماً أن يُشعرها بالمرح والحيوية... من الجائز أن تلعن نظرته اللامبالية إلى الحياة عندما يتعلق الأمر بحدوث أعطال منزلية، إلاّ أنه رائع حين يراقصها على هذا النحو الطليق فيُشعرها بأنها أكثر النساء حرارة وعاطفة... اللعنة! لقد نسيت كم هو بارع!

والآن، وعيناه الزرقاوان تضحكان لعينيها. وجسمها مُنثنٍ على ذراعه، كيف تستطيع منع نفسها عن الذوبان؟ ثم أنه يبدو مغرياً جداً... حافي القدمين يرتدي بنطال جينز ضيقاً تتدلى من جيبه منشفة مُبقّعة بصلصة البندورة، وكنزة مثلثة الياقة ومطوية الكُمّين تظهر قوة ساعديه...

تسارعت دقّات قلبها. واقترب تنفّسها من اللهاث الخفيف، فيما بدأ الدم يهدر في أذنيها. ولم يكن السبب عائداً كلياً إلى وضعها المائل رأساً على عقب... هدأت ضحكاتها وقالت وهي تحاول استرجاع توازنها الذهني والجسدي: «ارفعني! إن دمي يتدفق إلى رأسي!»

«ليس قبل أن تعديني.»

«حسناً، حسناً، سنتعشى معاً.»

بدأ يرفعها وقال: «عظيم، أعتقد أن نعومي سترحب بالعناية بكاتي غداً مساء. أخبرتني أنها مستعدة لمجالستها في أي وقت.»

«أوه!» أعولت كلير إذ تذكرت فجأة واقعيات السهر خارج البيت. وتابعت: «ديڤيد، لا يسعني أن أظل أترك كاتي مع جليسات، فأنا ما كدت أراها هذا الأسبوع، أنا... ديڤيد!»

صرخت بخوف حين ثناها من جديد فتشبثت بعنقه لئلا تقع.

«كنت تتركينها معي، أي مع... والدها - وليس مع جليسة غريبة. ثم إنك وعدت، أليس كذلك؟» انتظر جوابها ثم علّق مهدداً: «لقد عاد الدم يتدفق إلى رأسك؟» فأجابت ضاحكة: «حسناً أيها الوحش. سأبر بوعدي وسأطلب إلى نعومي أن ترعى كاتي.»

فرفعها بخفة ووقفت أمامه وذراعاها ما تزالان حول عنقه. ظلا دقيقة في هذا الوضع يحدقان بصمت في بعضهما البعض وقد خبا الابتسام على شفتيهما. خشيت كلير أن تطبق عينيها وتستسلم لفيض المشاعر الذي اجتاحها وأعادها للحظات إلى مُتع الماضي، ولذلك استجمعت قواها وأرغمت نفسها على التصلب والابتعاد عنه. ثم أرخت يديها حول عنقه وتركتهما تتدليان على جنبيها.

كان ديڤيد قد أحس بارتجافها فابتسم قليلاً، وسخرت عيناه من محاولاتها الابتعاد عنه. فما كان منه إلاّ أن جذبها نحوه ثانية. ووضع إحدى يديها على كتفه وغمر الثانية بيده وشرع يدندن لحناً ويراقصها.

أغمضت عينيها وتركت رأسها يسترخي على صدره. وتنهدت.

وعلى مدى نصف ساعة رقصت مع زوجها السابق في المطبخ... رقصت حافية القدمين ومن دون موسيقى... كان هو يتذكر بحنين... وكانت هي تحاول بيأس أن تنسى.

في الصباح الثاني أصعدت كلير ابنتها إلى باص المدرسة ثم عادت إلى البيت وارتقت الدرج لتقوم بزيارة لآل ماكسويل. حيّتها نعومي بترحاب ودعتها لتناول القهوة.

وقالت بعد دقائق وهي تحمل فنجاني قهوة إلى طاولة

المطبخ: «لم نرك كثيراً في المدة الأخيرة.»

كان زوجها في الصالون يجلس إلى طاولة واسعة عليها العديد من الأوراق والكتب، وهتفت له زوجته: «سام! انظر من جاء يزورنا.»

لما سمع الكابتن اسمه رفع رأسه وحيّا كلير بإيماءة شاردة ثم انحنى مجدداً على الورق القانوني الأصفر الذي كان يكتب عليه.

وقالت نعومي بتأفف: «تلك اللعبة! منذ ساعات وهو ينفذ فكرة جديدة خطرت له في منتصف الليل. شيئاً يتعلق بالنرد على ما أظن.»

كانت كلير تعلم أن الكابتن ماكسويل ابتدع لعبة رقعية معقدة فيها استراتيجية حربية وأشكال بشرية معدنية صغيرة، وأنه يُمضي أوقاته في صقل هذه اللعبة الحربية قبل أن يحاول تسويقها.

وقالت الآن لنعومي مبرّرة احتجاجها: «كنت غارقة في العمل مؤخراً، ولكني سأمضي هذا اليوم في إجازة.»

«ما أجمل ذلك! هل ستفعلين شيئاً خاصاً؟»

«أجل، ولذلك طرقت بابك. أنا وديفيد نرغب في الخروج للسهر هذه الليلة. وتساءلنا إن كان بإمكانك أن ترعي كاتي أثناء غيابنا.»

فوافقت نعومي بسرعة: «بالطبع أستطيع ذلك، لا سيّما وأن أحفادنا سيأتون أيضاً هذا المساء.»

وهنا تخيّلت كلير ما قد يحدثه هؤلاء الصغار من فوضى وخراب في أوراق الكابتن فسألت مضيفتها: «هل أنت أكيدة بأنك لن تنزعجي كثيراً؟»

«بالطبع لا! بل إنهم سيجدون شيئاً جديداً يلعبون به!» ثم أضافت رافعة صوتها: «أليس كذلك يا عزيزي؟»

فأومأ الكابتن ثانية من دون أن يكلف نفسه مؤونة النظر صوبها.

فشكرتها كلير بحرارة. إذ كانت تعاني باستمرار من مشكلة أناس مناسبين يرعون كاتي عدا جدّيها. ثم علّقت تقول: «لم أدر بأن لك أبناء يعيشون في الجوار.»

فأشارت نعومي إلى مجموعة صور معلقة على الجدار المقابل وقالت: «ابنتنا تعيش في سانت بول، وعندما تقاعد الكابتن العام الفائت حلا لنا أن نكون قريبين منها ولذلك قررنا المجيء لنجرّب شتاء مينيسوتا - لنرى إن كنا نستطيع الخروج منه سالمين. أليس كذلك يا عزيزي سام؟»

عاد الكابتن يومىء برأسه الشائب مع أن كلير كانت شبه متأكدة بأن كلمات زوجته لم تخترق تركيزه الذهني على الإطلاق. لقد سمعت كلير الرجل يتكلم مرة أو مرتين إنما لا تذكر بالضبط متى حدث ذلك.

ولكن نعومي بدت مكتفية بإيماءة رأسه. شربت جرعة من القهوة وتابعت الحديث: «وها قد حلّ نيسان وما نزال هنا - مع أن تلك الفترة القاسية من شباط / فبراير جعلتني أفكر في الانتقال إلى مكان دافىء، ما بين فيونكس وميامي.»

ابتسمت كلير بتعاطف. فشباط، برغم قصره، شهر قاسٍ في مينيسوتا. «إذن، تفكران في إمكانية البقاء هنا؟»

«لم نقرر بعد. لا نريد أن نتسرع. من الناحية المادية نحن قادران والحمد لله على إيجاد أي مكان نريد. هذه نعمة لأن العديد من أصدقائنا يعانون من كابوس التقاعد.»

«التقاعد.» خرجت الكلمة من فم كلير مثل تنهد قلق. «من المستحيل على المرء أن يخطط للمستقبل ونسب الفوائد تتقلب على هذا النحو.»

فاستغربت نعومي بنبرتها القلقة وقالت مبتسمة: «لكنك لست مضطرة الآن للتفكير في التقاعد، هناك وقت طويل لذلك.»

فهزت كلير رأسها وردّت بجدية: «بل يجب التبكير في إدخار شيء لسنّ التقاعد. لديّ الآن مدخرات متواضعة. وإذا ما استمرت الفوائد على نسبة سبعة بالمائة على الأقل، سأتمكن من التقاعد براحة بعد سبع وثلاثين سنة. وهناك البيت أيضاً، إنما ذلك يتوقف بالطبع على التضخم وعلى استمرار ازدهار سوق العقارات.»

رفعت رأسها، وكانت منحنية على فنجانها، فإذا بنعومي تحدق فيها بغرابة: «ما بك؟ ما الأمر؟»

«كم عمرك يا كلير؟»

«ثمانية وعشرون عاماً.»

«ومع ذلك بدأت تدخرين لسن التقاعد...»

«بدأت أوفر منذ سبع سنوات.»

أعقب تصريحها صمت لم تتوقف نعومي من خلاله عن ارباكها بتحديق متأمل. ثم سألتها فجأة: «ماذا ستلبسين الليلة للعشاء؟»

فباغتها التحويل المباغت للموضوع وقالت بتردد: «لا أدري... لم أفكر بذلك. في أي حال لديّ فستان أسود أرتديه عادة لمناسبات كهذه.»

«هل سبق لديفيد أن رآه عليك؟»

«أجل.»

فأعلنت نعومي بحزم ناهضةً عن كرسيها: «هذا يحسم الأمر هيّا، سنذهب للتسوق.»

«الآن؟ أوه، لا، لا أستطيع...»

«حسبت انك اليوم في إجازة؟»

«أجل، ولكن...»

«إذن، لنذهب ونبتاع ثوباً باهراً.»

لكن كلير هزت رأسها وقالت باعتراض: «حالتي المادية لا تمكنني من شراء فستان جديد، أقصد أن...»

تلاشت عبارتها، إذ وعت فجأة مدى آلية كلماتها. فهي تقدر في الواقع على شراء ثوب جديد. فمن حين بدأت كاتي تذهب إلى المدرسة استطاعت هي أن تُؤمن مزيداً من الزبائن، بل أن كثرتهم باتت مصدر إرهاق لها... ومن جهة أخرى، البيت لا يحتاج تصليحات مكلفة. والسيارة تسير على نحو جيّد... لماذا إذن لا نبتاع فستاناً جديداً؟ لقد اعتادت في الماضي، أيام كان حالها عسيراً بالفعل، أن تردد عشرات المرات عبارة: «ميزانيتي لا تتحمل شراء هذا الشي. أو ذاك.» حتى صارت هذه الكلمات تصدر عنها تلقائياً، بحكم العادة.

وعت بأنها كانت تجلس بفم مفتوح، ونعومي تقف أمامها منتظرة جوابها. فابتسمت بتألق وقالت: «أظنك على حق، فشراء فستان جديد فكرة رائعة!»

«تحركي إذن! إمضي واجلبي حقيبتك لنقتحم المتجر!»

شيّعت ضيفتها الشابة إلى الباب ثم سكبت لنفسها قهوة ساخنة وحملت الفنجان إلى غرفة الجلوس حيث وقفت إلى جانب زوجها وقالت: «سام، هل سمعت حديثها؟ هذه الطفلة المسكينة خطّطت للسنين السبع والثلاثين المقبلة من عمرها...

أو على الأقل هذا ما تعتقد! أتصدق ذلك؟ سوف تهرم قبل الأوان إن استمرت على هذا التنظيم والتخطيط لكل صغيرة وكبيرة! أراهن على أنها لم تقم بأي تصرف عفويّ في حياتها!»

فكّرت بضع لحظات، ثم قررت بإيماءة حازمة من رأسها الأحمر الشعر: «هذه الشابة بحاجة إلى شخص يساعدها على الاسترخاء.» استدارت على عقبيها وسارت في اتجاه المطبخ وهي تغمغم: «كما أن علاقتها بزوجها غريبة جداً، هي تحتاج...»

استدار الكابتن قليلاً ملاحقاً زوجته بنظراته، ثم فتح فاه ليقول شيئاً ولكن حين رأى ظهرها المشدود في عزم وإصرار أطبق فمه بتعقل وعاد إلى أوراقه.

في وقت لاحق من تلك الأمسية، وجدت كلير نفسها تشكر جارتها بصمت وهي تقف أمام المرآة في فستانها الجديد تتأمل انعكاسها بغبطة ممزوجة بغرور بسيط. إنها تبدو جميلة والفضل يعود لنعومي التي ظلت تُبعدها عن قسم المبيع ذي الأسعار المخفضة، وتضربها على يدها بحزم كلما رفعت كُمّ فستانٍ لتقرأ بطاقة تسعيره.

وكانت النتيجة رائعة، اضطرت للإقرار بذلك وهي تلقي نظرة ثانية على ظهره الجريء التصميم. كان من الحرير الأخضر ذا ياقة أنيقة عالية وكُمّين طويلين ضيقين إنما كان ظهره المشقوق يعري ظهرها إلى حدٍ ما. سارت بضع خطوات متمايلة الردفين وراقبت كيف انفتح الشقان على جانبي التنورة بشكل جذّاب... ابتسمت ببهجة بريئة تناقضت مع مغريات الثوب الأنيق، ثم صرفت بضع دقائق في تمرين

عضلات وجهها فتارة تزم شفتيها وطوراً تمص باطن وجنتيها، وفي الوقت نفسه مشطت شعرها ببراعة وتركت غزارته الداكنة تسترسل على كتفيها، ولكنها سحبت أحد جانبيه إلى ما وراء أذنها وثبتته بمشط مرصع بحبوب ماس وزمرد مزيفة، أرسلت توهجاتٍ متكسرة. وأخيراً زيّنت أذنيها بقرطين طويلين مماثلين للمشط.

كانت وضعت أحمر الشفاه خفيفاً على وجنتيها. وظلين رماديين رفعتهما قليلاً عند زاويتي عينيها لتعزز شكلهما اللوزي ولتلفت الانتباه لأصلها الاسكتلندي. لم يبق الآن سوى الحذاء الذي اختارته أسود اللون مرتفع الكعب ليضفي عليها مظهر الطول فهي لا تزيد عن خمس أقدام وأربع بوصات. انتعلت الحذاء وبدت ساقاها ممشوقتين حقاً!

كانت تبتسم بشيء من الخبث، وعيناها تلتمعان بانفعال داخلي عندما رنّ جرس الباب وسارت إليه لتفتحه... لقد كان ديفيد على حق- فهي تتطلع بشوق إلى هذه السهرة، وفستانها ممتاز، وهواء الربيع ممتاز، واختيار المطعم ممتاز ولكن ماذا عن رفيقها؟ أقرت بأنه ممتاز أيضاً حين فتحت الباب ورأته واقفاً على العتبة وحاملاً وردة طويلة الساق.

كانت بذلته الفخمة منسكبة كالقالب على جسمه الطويل، ولونها الأزرق الداكن يظهر بالمغايرة جمال شعره الأشقر. أما فرديته المميزة فكانت بادية في اختياره قميصاً زهرياً وربطة عنق متعددة الشكل واللون، وحمّالتين لونهما فيروزي.

قال وعيناه تتأملانها باعجاب: «ليتني ابتعت زهرة أوركيديا، فهذه الوردة المسكينة تبدو عادية أمام طلعتك البهية.»

«إنها رائعة.» أجابته بخجل غير مألوف جعلها تُخفض بصرها إلى الوردة، ثم أخذت تعبث بأحدى البتلات المخملية وقد أربكتها مجاملته البسيطة. فهو أستاذ في مجاملة النساء وحيث لا يعرف غلوّه حدوداً. أما الليلة فقد افتقرت كلماته إلى تطرفها المعتاد. وعبّرت نظرته ونبرته عن إعجابه دونما حاجة منه لزيادة أوصاف منمّقة. وبشكل ما، أشعرتها هذه البساطة بأنها ذات مكانة خاصة لديه. وغمغمت تقول: «سأضع الوردة في أصيص وآتي بحقيبة يدي.»

«إنتظري. أريد أن أريك شيئاً.»

أمسك بمرفقها وقادها إلى الخارج ثم سأل باعتزاز:

«ما رأيك؟»

نظرت إلى حيث أشار وشهقت حين رأت، إلى جانب سيارتها القديمة الجاثمة في المرآب، سيارةً جديدة فخمة رمادية اللون ذات أربعة أبواب تلمع بوقار وليس ببهرجة، وتجلس برسوخ على عجلاتها وسط الأعشاب الضارة متغلبةً على محيطها الرث بأناقة فائقة وصفاءٍ ظاهرين برغم عتمة الغروب.

تطلعت إليه كلير متسائلة فنظر في عينيها وأجاب بهدوء:

«لقد دفعت ثمنها يا كلير! دفعته نقداً.»

فأدركت فوراً ما رمى إليه، وعادت إليها مرارة تجربة سابقة ما لبثت أن جرفتها بقوة إلى أمسية معيّنة مضى على تاريخها عامان بالضبط.

الفصل الخامس

كان اليوم الذي تلا يوم الضرائب، وكانت مستلقية في مخدعها المعتم تتكور بتعاسة وإرهاق وقد استبد بها صداع رهيب ما انفك يُفَجّر لُمعَ أضواءٍ خلف جفونها المطبقة كلما حركت رأسها.

كان اليوم السابق مفعماً كعادته بالعمل المسعور المتواصل حيث انقضى عليها سيل من الزبائن المتدافعين الذين انتظروا حتى اللحظة الأخيرة الممكنة لتسجيل ضرائبهم في بادرة تمردية على سلطة مصلحة الضرائب الهرقلية... وزاد الطين بلة أن كاتي أصيبت بحمى وتقيؤ فاضطرت كلير لأن تغسل دفعة وراء دفعة من الشراشف والحرامات وتركض رائحة غادية بين مكتبها ومخدع كاتي وما بين زبون وآخر.

أملت بأن يأخذ ديفيد قسطاً عنها لدى عودته عصراً، وهكذا أجبرت نفسها على الاستمرار، مراقبةً بلهفة وصول عقربي الساعة إلى الخامسة والنصف. ولكن ما أن دخل البيت حتى أغلق على نفسه باب غرفة مكتبه وانغمس في الكتابة غير مبالٍ بالطفلة المريضة أو بيوم الضرائب، فهذه الأمور لا تعني له شيئاً... وهكذا، استلقت الآن في فراشها تفكر بمرارة في مدى الإجحاف المحيق بها من جراء تقديمه عمله على عملها ولا سيما أنها هي التي كانت تدفع الفواتير من راتبها... وكم هو مجحف أيضاً أنه عند مرض كاتي لم يقدر أن يخترق انغماسه في الكتابة... قلبت على جنبها الآخر محاولةً ألا تحرك رأسها

أكثر من اللازم. وشكرت أمها التي وافقت على رعاية كاتي ذلك النهار. إن أمها ملاك عندما يتعلق الأمر برعاية الأطفال الناقهين، وعلى أي حال، كان من المستحيل عليها أن تتعامل مع كاتي ومع الصداع في آنٍ.

كذلك واجهت في الصباح مشكلة مع المستأجرين... يا الله! من المفروض أن ترتاح وتسترخي ليزول الصداع تدريجاً ولكن كيف لها أن تسترخي وقد جاءها المستأجرون في الطابق الثالث وأعلنوا بأنهم سيغادرون الشقة في التو، ثم اعتذروا عن السجادة القذرة، والستائر التي أتلفتها قطتهم، وعن الإيجار غير المدفوع... كيف لها أن تسترخي وذهنها لا ينفك يغربل الفواتير ويحاول استنباط وسيلة لكسب مال إضافي يصلحان به الشقة الخالية وينظفانها ويؤجرانها من جديد... وإذا لم يتمكنا من تأجيرها، كيف سيتدبران الأمور؟

كان ذهنها قد عاود الفوضى في استعراض الخيارات عندما سمعت ديڤيد يدخل البيت ويصفق الباب بقوة ألمت رأسها وفجأة غمر النور مخدعها حين اقتحم الغرفة وضغط على الزر، وكان في منتهى الانفعال بحيث لم يلاحظ الشحوب الشديد الذي اعتراها بسبب الوهج والضجيج.

لقد ابتاعت المجلة قصته! أليس ذلك رائعاً؟ أليس ذلك مدهشاً؟ ألا يحفزها ذلك على الرقص فرحاً؟ ثم جرّها من الفراش غير منتبه لاعتراضاتها لفرط نشوته... هناك شيءٌ في الخارج يريدها أن تراه... شيء مفرح جداً...

وقفت على رأس الدرجات تتمسك بذراعه خشية الوقوع، وتحاول تركيز بصرها الزائغ على مصدر فرحه العارم، فرأت في مرآبهما سيارة حمراء نارية... سيارة سبور عمرها إثنا

عشر عاماً على الأقل، ذات مؤخر منبعج. وتبدو أنها سارت أكثر من مئة ألف ميل.

كان ديڤيد يلوّح لها بالمفاتيح ويحثها على هبوط الدرج وكلّه شوق ليأخذها في نزهة. ولكنها تمسكت بالدرابزين وسألت بصوت واهن: «أنت... أنت ابتعت هذه...؟»

«أليست عظيمة؟» كان يقفز على رؤوس أصابع قدميه ويضحك ضحكة عريضة. فاستوضحته بجفاف: «كم ثمنها؟»

«ألف وخمسمائة دولار فقط! أتصدقين ذلك؟ يالها من صفقة!»

فسألت بصوت أشد جموداً: «من أين جئت بهذا المبلغ؟»

وهنا تنبه لفتورها فتصلبت كتفاه وقال بتكلف: «قالوا في المجلة إنهم سيرسلون الشيك بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع...»

ولما لزمت الصمت تابع مفسراً: «وهكذا حصلتُ على سلفة نقدية على بطاقة الاعتماد خاصتنا.»

فشعرت كما لو أنها تلقّت ضربة قوية على رأسها. فصرّت على أسنانها لتتقي الألم ولتكبح الغضب الأعمى الذي انتابها. ثم تمالكت نفسها قدر الإمكان وسألته: «أتعلم أن ذلك كان السقف الأقصى للسحوبات؟»

«أجل، لكنني...»

فلم تدعه يكمل عبارته وقالت بمرارة وسخرية ثقيلة: «وهكذا تأكدت يا دكتور ديڤيد بأن كاتي لا تشكو التهاب الزائدة الدودية؟»

«ماذا؟»

وعكس وجهه مزيجاً من الحيرة والذعر.

«كاتي، ابنتك، الطفلة التي أُصيبت بحمّى وتقيؤ وشكتْ من ألم في بطنها، ولكنك قررت، بحكمتك اللامتناهية، بأنها تشكو

فقط من حمّى معدية ولذلك لم تجد أي حرج في استعمال بطاقة التسليف التي نحتفظ بها للطوارىء، فيما تعلم جيداً بأننا لا نملك قرشاً من الضمان الصحي؟»

فردّ بصوت قاسٍ: «أظنك تبالغين في ردّ فعلك يا كلير، فالشيك سيصل في غضون أسابيع قليلة.»

«أوه، الآن صرت ديڤيد السماوي الذي يتنبأ المستقبل... العارف بأن لا أحد فينا سوف يمرض أو يتعرض لحادث! هل كان شراؤك هذه... هذه الخردة مُهماً جداً حتى قدّمته على مصلحة عائلتك؟»

«تعلمين جيّداً ما قررناه سابقاً - أن نبتاع سيارة جديدة إذا ما اشتروا القصة! لقد قررنا...»

«قررنا نحنُ يا ديڤيد؟ أنا لا أرى نفسي في هذه القرارات! أراك أنت فقط تقرر اليوم أن تشتري سيارة، أراك تقرّر نوع السيارة التي تريد، أراك تقرر استدانة المال.» انقطع صوتها إذ شعرت بضحكة هستيرية ترتفع في حلقها، وتابعت اتهامها وهي تحاول بيأس أن تحبس دموعها: «أراك تُمعن في تصرفك الطائش إلى حدّ عجزتَ معه على الاصطبار ثلاثة أسابيع ملعونة... لتحصل على لعبتك هذه، وكأنك طفل يصر على إكتفاءٍ فوري. أراك...»

وهنا اجتاحها غضب هائل أعجزها عن الاستمرار، ثم استدارت بسرعة وشعرها الداكن يتطاير حولها وركضت إلى مخدعها، حيث جثمت عند السرير وأخذت تتحسس الأرض حتى انطبقت أصابعها على مقبض الحقيبة الرثة. تجاهلت صداعها الأليم وبدأت تفتح الأدراج وتخرج ثيابه وترميها في الحقيبة عشوائياً.

وقف ديڤيد على العتبة وراقبها بصمت وذهول حين أغلقت الحقيبة المنتفخة وأنزلتها عن السرير ولما جرّتها إلى حيث يقف ضربتها على ركبتيه فأوشك أن يسقط بفعل هياجها.

«أتعرف ماذا أرى يا ديڤيد؟ أراك تخرج الآن من حياتي!»

كانت كل كلمة محددة الطرف أحدثت خروقاً في ثوب زواجهما. وهكذا صعد ديڤيد وقتئذٍ إلى الشقة العليا الخالية، حاملاً الحقيبة بيده، وسريراً مطوياً تحت إبطه. وبشكل ما، مرّ عامان على تلك الأمسية.

والآن، وهي تقبض بقوة على الوردة، وَخَزَ شوكها كفّها فاضطرت لنفي تلك الذكرى من بالها، وعادت تحدق إلى السيارة الرمادية الجديدة التي أرادها أن تعرف بأنه دفع ثمنها نقداً... أدركت فوراً أنه كان من خلال هذا التصرف يعتذر لها عن أحداث تلك الليلة البعيدة... إن السيارة كانت بمثابة هدية مناسبة ذكرى طلاقهما... تكفيراً عن ذنوبه السابقة.

استشعرت توتره وهو ينتظر جوابها.

«إنها سيارة رائعة!» قالت بحماسة ليقتنع برضائها القلبي عن اختياره هذه السيارة، وفي الحال، شعرت بيده تسترخي على مرفقها كونها تقبلت اعتذاره.

ثم نظرت إليه مبتسمة، وقالت تمازحه لتخفف من حرج اللحظة المشحونة بالعاطفة: «ولكن لماذا اخترت هذه؟ ماذا عن تلك السيارة السوداء التي داعبت خيالك منذ أن عرفتك؟»

«إنها صغيرة، ذات مقعدين فقط... لن تكون واقعية، فأين ستجلس كاتي؟»

فحاولت إخفاء دهشتها... فهو طيلة حياته لم يعرف

الواقعية في ما يختص برغباته واحتياجاته، ولم يستعمل حتى هذه الكلمة...

ومضى يقول: «لكن هذه المركبة الجميلة تتميز بالاتساع والقوة. وبسلطة معينة... هي مثلي من هذه النواحي، ولذا فكرت بأنها ستناسب صورتي الجديدة أكثر مما تناسبها سيارتي القديمة، مع أني سأفتقد حملك لي هنا وهناك كلما تعطلت.»

«وأنا سأفتقد حتماً نهايات الأسبوع التي كنت أصرفها في إصلاحها لك.»

«الذي ستفتقدينه هو شعورك بالاعتداد واعتقادك بأنك أكثر حكمة من الآخرين! أظن أنك كنت تفرحين سراً كلما تعطلت وعجزتُ عن إخراجها من المرآب.»

فردّت ضاحكة: «وظننتُ بأني كنت بارعة في إخفاء فرحي!»

فبادلها الضحك وقال: «هيّا، لنذهب وننعم بالترف هذه الليلة، إننا نستحق ذلك.»

«دعني أولاً أضع الوردة في أصيص.»

مضت إلى المطبخ، وفيما هي تملأ الأصيص رنّ جرس الهاتف: «آلو؟» ركزّت السماعة بين ذقنها وكتفها ريثما جفّفت يديها: «أوه، لورنس، يسرني أن أسمع صوتك.» كان ديڤيد قد وقف بقربها، فأدارت له ظهرها لتؤمن لنفسها خصوصية وهمية وقد بدا واضحاً أنه قرّر الإستماع إلى كل كلمة ستقولها.

«أجل، كان لطفاً كبيراً منك أن تحجم عن مخابرتي هذا الأسبوع، إني أقدّر تفهمك حق قدره. كان المكان هنا أشبه بحديقة حيوانات.» ورشقت ديڤيد بنظرة غاضبة، فيما غطّت

بيدها فوهة السماعة لئلا تصل غمغمات ديڤيد الساخرة إلى مسمع لورنس. ومضت تقول: «نعم، وأنا افتقدك أيضاً.» ثم لوت رأسها لتتفادى الهواء المدغدغ الذي كان ديڤيد ينفخه في أذنها. «أوه، كان بودّي أن أفعل ذلك يا لورنس ولكني سأخرج الليلة مع صديق لي، بل كنتُ على وشك الخروج من الباب. نعم، إتصل بي غداً لنرتب شيئاً. إلى اللقاء.» ثم قالت لديڤيد: «كفّ عن هذه الحركات أيها المراهق!» دفعته في خاصرته لتبعده وتمنعه من تجديل خصلة من شعرها. فأجابها برضى وهو يتأمل بإعجاب لمعان شعرها الحريري: «أنت بحاجة لشخص يمنعك من تدمير حياتك.»

«شكراً، أنا راضية تماماً عن حياتي. هيّا بنا.» ثم التقطت حقيبتها اليدوية من على المنضدة وتوجهت إلى الباب. وقال ديڤيد وهو يتبعها بطاعة: «إذا تزوجتِ ذلك العجوز القديم الطراز فسوف تلبسين اللؤلؤ بسرعة، وتكبرين قبل الأوان. وأنا كصديق لن أدعك تفعلين ذلك.»

«أنا لم أوافق بعد.»

ندمت فوراً على مقولتها التي أكدت له بطريقة غير مباشرة بأن لورنس عرض عليها الزواج، وهذا شأن لا تنوي بحثه مع ديڤيد.

ولما استقرا داخل السيارة الفارهة، حوّلت موضوع علاقتها بلورنس وأخذت تثني على محاسن السيارة أما ديڤيد فارتاح لتحويل دفة الحديث، وحاول تجاهل الخيبة التي اعتصرت معدته حين أكدت كلماتها العرضية مخاوفه.

أدهشها ديڤيد مرتين ذلك المساء. الأولى باختياره سيّارة

عائلية. وأدهشها الآن بتصرفه خلال العشاء. كانا يدوران على حلبة الرقص وقدماها تتبعان خطاه بلا جهد، فتسنى لها أن تفكر وتتساءل عن سرّ العناية الفائقة التي أحاطها بها طوال السهرة خلافاً للعادة. من جهة ثانية هو لم يلتفت إطلاقاً إلى النادلة ذات التنورة القصيرة والكعب العالي برغم أنها بذلت جهوداً مكشوفة لنيل انتباهه - بل أنه لم يلاحظ حركاتها! أما ديڤيد السابق، فما كان ليستطيع منع نفسه من التغزل بأية نادلة إذ كان الغزل طبيعياً بالنسبة إليه مثل التنفس. لقد أهملتهما النادلة في نهاية العشاء لاستيائها من برودة ديڤيد ولكن كلير وجدت في ذلك تغييراً مُهِماً ومنعشاً.

كذلك أدهشها حديثه الرائع إذ أبدى اهتماماً بعملها وأغرقها بالمديح. فديڤيد القديم كان يجرحها بصراحته عندما يقول إن المحاسبة مهنة مضجرة وخالية من الروح. أما الليلة فقد أحاطها بكامل رعايته وجعلها تشعر بأنها فاتنة وسريعة الخاطر ومغرية... وفي السابق كانت ذروة حيويته أن يجول ببصره في أرجاء المطعم ويعلّق بفظاظة على هذا وذاك من الحضور، ويروي نوادر. مؤدياً دوره كنجم الحفلة حتى من دون جمهور سواها.

وهنا، أهاب بها جزءٌ ساخر من ذهنها بألاّ تتأثر كثيراً بتصرفه الجديد هذا. لأنّه أشبه بحرباء. يلبس الأدوار المتنوعة وينزعها وفقاً لمآربه، وقد يكون الليلة يلعب دوراً عنوانه: «كيف تسترد زوجتك.»

ولقد برع في تأدية هذا الدور... اضطرت كلير للإقرار بذلك بعدما عادا أخيراً إلى البيت... أرسلته إلى شقة نعومي ليجلب كاتي، ووضعت إبريق القهوة على النار وهي ما تزال حائرة

من تصرفات هذا الرجل شبه الغريب الذي أمضت السهرة معه... بالطبع، هذه هي المرة الأولى منذ سنتين التي سهرا فيها بمفردهما. فدائماً كانت كاتي موجودة معهما، إما لتحسم نزاعهما أو لتكون هي مركز الاهتمام. والليلة انفردا ست ساعات ركزا خلالها على بعضهما البعض، ولم يسبق أن صرفا مثل هذا الوقت منفردين، طوال سنتهما الزوجية الأخيرة... هل هذا هو ديڤيد الحقيقي الذي تغير بشكل ما في السنتين المنصرمتين؟ أم أنه يؤدي الليلة دوراً معيناً؟

راقبته يحمل كاتي النائمة إلى غرفتها ويمددها على سريرها ثم ينزع حذاءها برفق ويغطّيها بالحرام الزهري. وأخيراً طبع قبلة على جبينها واستقام يبتسم لكلير الواقفة على العتبة تحمل له فنجان قهوة ومن دون أن تشعر بأي حرج كونها شهدت على الطريقة الرقيقة الحانية التي عامل بها طفلته.

وعلّقت هازّةً كتفيها: «لا أفهم هذا على الإطلاق.»

«لا تفهمين ماذا؟»

تبعها إلى غرفة الجلوس حيث سارع إلى نزع ربطة عنقه وسترته مظهرا الحمّالتين الفيروزيتين. ثم جلس براحة على الأريكة.

«لا تفهمين ماذا؟» كرّر وهو يمد ساقيه أمامه.

فردّت بشبه اتهام: «السيارات! والنادلات! ثم منذ متى اهتممت مثقال ذرّة بأمور المحاسبة؟»

«كنت دائماً أحب المحاسبة يا كلير، وأنت تعلمين ذلك.» قال ذلك بجدية مصطنعة إنما لم تكن لديه أدنى فكرة عما تتحدث.

استاءت من مزاحه فرشقته بنظرة غاضبة وقالت:

«أنا لا أُمازحك! ألم تلاحظ تلك النادلة أبداً. هذا المساء؟»

«النادلة؟»

أوشك أن يهديها جواباً نكياً كأن يقول مثلاً: «عيناي لم تريا امرأة سواك،» إلا أنه احترم جديتها فكبح نفسه وأجاب بدل ذلك:

«كلا، لم ألقِ بالاً في الواقع.»

«لماذا؟»

«لا أدري يا كلير!» أشعره استجوابها بالتوتر وتابع: «ما القضية يا كلير؟ هل تحاولين القول بأنك منزعجة من عدم مغازلتي للنادلة؟»

«لست منزعجة بل حائرة.» صمتت تفكر بقلق ثم تابعت محدقةً في وجهه: «وعندما ذهبتُ لتشتري سيارة جديدة فكرت فعلاً بأن السيارة السوداء الأخرى لن تكون واقعية... أقصد أنك استعملت هذا التعبير بالذات.»

فأجابها شارحاً بأناة: «بالطبع قمت أولاً بجولة في سوق السيارات، ولكني لم أفكر أبداً بشراء تلك السيارة الفاحشة الثمن.»

«لماذا؟»

«لأن كل امرىء يتخلى عن خيالاته الجامحة بعدما يكبر.»

استوعبت ذلك دونما تعليق. كانت ما تزال واقفة في منتصف الحجرة بجمالها الأسمر الفتّان. وتركز على ديفيد بقوة. تحمّل تفحصها بهدوء وقد أدرك أنه يخضع لامتحان معينّ تمنى أن ينجح فيه على الرغم من جهله الأجوبة والأسئلة. وقالت أخيراً: «أهذا أنت يا ديفيد أم أنك شخص تعتقد بأني أريده أن يكون كهذا؟»

«بل من أريده أنا أن يكون كهذا يا كلير.»

ولكنها لم تصدّقه وظهرت شكوكها بجلاء على محياها. فعيل صبر ديفيد الذي سارع إلى النهوض والوقوف أمامها بقامته المديدة وكأن مجرد اقترابه منها كفيل بإقناعها. وقال بتؤدة: «في اليومين الماضيين فكّرت جدياً بحوارنا تلك الليلة... عندما زوّدتني بقائمة طويلة من الأشياء الخاطئة في زواجنا، فإذا كانت صداقتنا أهم لديك من الحب وأهمّ من المال فقد حان الوقت إذن لأتعلم كيف أكون صديقاً. وهذا يعني...» فقاطعته وهي تهز رأسها اسخفافاً بشرحه:

«النمر لا يستطيع أن يغيّر رقطه بسهولة.»

فاقترح من باب المساعدة: «ألا تستطيعين أن تعلّمي كلباً عجوزاً حِيَلاً جديدة؟»

فردّت بعناد: «الأمثال لا تخلد عبثاً.»

«ولكني لست نمراً ولا كلباً ولا مَثَلاً... وبوسعي أن أتغيّر... يا إلهي، يا كلير، أنا لست مثل مصلحة الضرائب أحتاج إلى مرسوم من الكونغرس لأبدّل رأياً أو وجهة نظر أو موقفاً. الناس يتغيّرون كل يوم على مرّ السنين! أو تظنين فعلاً بأنك الشخص نفسه الذي كُنتِه منذ سنتين؟»

«ولكن تغيّراتي كانت لنفسي... لأسعد أنا شخصياً ومحاولتك تغيير نفسك لتسعد شخصاً آخر لن تنجح أبداً. عليك أن تؤمن بأن التغيير مناسب لك وليس لي أنا!»

«انه مناسب لكل منا كلير، كلير، أنت تعقّدين الأمور كثيراً! إن ذهنك البارع التحليل يحاول أن يُشرح الوضع ويدرسه ويقيّمه... اسمعي... دعيني أبسّطه لك:«إن حصولي عليك كزوجة هو أهم شيء بالنسبة إليّ، وفي سبيل ذلك أنا مستعد

لتغيير ديني ومواقفي السياسية ولون شعري... أي شيء باستثناء تغيير رجولتي.» وأضاف العبارة الأخيرة مبتسماً.

فهتفت: «عرفتُ بأنك لن تأخذ الموضوع على محمل الجد!»

ضربته على ذراعه ولم يسعها إلا أن تباله ابتسامته ببسمة مماثلة... على أي حال، لا داعي لكل هذه الجدية، وليست بحاجة لأن تباله هذا النوع من الأحاديث. صحيح أنه كان يتصرف بشبه نُضْج في الفترة الأخيرة إلا أن كل ذلك كان مجرد غطاء مزركش ليس تحته أية رغبة حقيقية في الارتباط. أجل، قد تكون تطلب منه الكثير إذا توقعت أن يتحول إلى رجل مسؤول وواقعي.

وإذا كانت بحاجة لبرهان آخر على أن ديفيد القديم ما يزال يكمن تحت السطح، فإن الطريقة التي بدأت بها يداه تنزلقان على ذراعيها كانت ذلك البرهان... كيف يمكن أن يتغير وهو لا يدع فرصة واحدة تمر من دون أن يحاول استعادتها عن طريق الإغواء، ويحاول تحويل الشرارة الموجودة دائماً بينهما إلى لهب؟... إنه يجد متعة شخصية في تقليص «دماغها التحليلي» إلى كتلة من متقبلات المشاعر المشحونة، والعاجزة عن أي منطق أو تفكير.

«الوقت متأخر، من الخير أن انصرف، تمنياتي لكِ بعيد طلاق سعيد.» ثم تناول سترته وتوجه إلى الباب تاركاً إياها تقف حافية وسط الغرفة، وهي تنظر خلفه بخيبة وارتباك.

في الصباح التالي عاد الشتاء منتقماً، وبدا أكثر برداً بعد الطقس الربيعي المزيف الذي ساد المدينة في مطلع الأسبوع. هزت كلير وعاء المهملات مرتين وراقبت سقوط اللفائف

الورقية في صندوق القمامة، ثم عبرت الممر آب بسرعة وبدأت ترتقي الدرجات. في تلك اللحظة بالذات غادرت نعومي شقتها وكانت ترتدي بزة الرياضة القطنية.

هتفت كلير تحييها ثم قالت: «كيف خطر لك أن تهرولي في هذا البرد؟ سوف تتجمدين!»

«الحركة ستدفئني بسرعة، لا تخافي.» ثم وقفت برهة خارج باب كلير لتلبس قفازيها، وسألت وهي تُدخل أصابعها في الفراء الناعم: «كيف كانت سهرتك أمس؟»

«ممتعة، تشكراتي الجزيلة على رعايتك كاتي.»

«لم يزعجني ذلك فقد انسجمتُ مع أحفادي كثيراً. أين ذهبتما؟»

«إلى مطعم البستان.»

فتحت كلير بابها وأشارت لنعومي بالدخول إذ كانت ترتجف برداً في ثيابها الخفيفة.

«يا للعظمة! حتى أنا الغريبة عن المدينة سمعت بهذا المطعم. يقال إن أسعاره مرتفعة جداً، أهذا صحيح؟»

«بل أسوأ مما يقال.»

فاستوضحت نعومي بعدما تبعت جارتها إلى المطبخ واعتذرت عن مشاركتها شرب القهوة: «هل كنتما تحتفلان بمناسبة ما؟»

فردّت كلير وهي تسكب القهوة لنفسها: «يوم أمس وافق الذكرى الثانية لعيد طلاقنا.»

«ماذا؟ اسمحي لي بالقول إنه من الغرابة بمكان الاحتفال بشيء كهذا.»

فردّت كلير متنهدة: «إن علاقتنا غريبة... كما لاحظت. أرجو

أن تدركي كم أنت محظوظة بزواجك من الكابتن، أقصد أنه يبدو... شخصاً موثوقاً جداً.»

«أجل، يمكن الاعتماد عليه كأنه صخرة. بالطبع، المرأة تحتاج رجلاً على غراره عندما تتزوج من السلك العسكري. وهذه الحياة لا تلائم الأشخاص الذين يشعرون دوماً بحاجتهم للأمان.»

«نعم، لا تلائمهم. كنت أحسب أن الزواج من كاتب مكافح أمر متعب، ولكن الحياة العسكرية - وكل تلك التنقلات... والتساؤلات - متى وأين سينقل في المرة التالية... لو كنت زوجة رجل عسكري لأصبت بالانهيار.»

«أوه، لم تكن التنقلات سيئة إلى هذا الحد. ولكن الحروب شيء آخر... كوريا كانت سيئة وفيتنام كانت أسوأ.»

فشعرت كلير برجفة هلع تسري في ظهرها، وفكرت، يا إلهي، ذلك هو انعدام الأمان الأقصى... عندما لا تعرف الزوجة متى ستأخذ الحرب زوجها... ربما إلى الأبد! وفجأة اعتراها الخجل - أمام هذه المرأة - من الضجة التي أثارتها حول رحلة ديفيد إلى ألاسكا، تلك الرحلة البسيطة إذا ما قورنت بهول الحروب، وقد تكون قصة ديفيد والدب بسيطة أيضاً... وسألت جارتها:

«كيف أمكنك أن تتحملي ذلك؟»

فهزت نعومي كتفيها وأجابت: «إننا نفعل أي شيء في سبيل الحب. أليس كذلك؟»

فعلقت كلير بازدراء: «الحب! الحب لا يكفي! تصوّري أن يتحمل المرء الحيرة والخوف والقلق... لا يمكن أن أقبل بذلك أبداً!»

بدا لنعومي أنها لمست موضعاً مؤلماً بالنسبة لكلير التي كانت ترشقها بنظرات غاضبة. فقالت بهدوء ولطف:

«دائماً كان الحب بالنسبة إليّ أمراً دافعاً ومحركاً. يقولون إن الحب يصنع المعجزات وما إلى ذلك من أقوال مأثورة.»

«تتكلمين الآن مثل ديفيد!» لم تكن كلير راغبة في سماع الأقوال المأثورة مع أنها استعانت أمس بواحد منها.

«على الرومانسيين أن يتحدوا.» ثم قررت نعومي أن تغيّر الموضوع قبل أن تمعن كلير في انفعالها. فقالت: «من الخير أن أمضي وإلاّ عدلتُ عن عزمي على الهرولة برغم البرد.» ثم ثبتت السماعتين على أذنيها ولوّحت بيدها مودعة وهي تتجه إلى الباب.

عدلت كلير عن شرب قهوتها، والتقطت سلّة المهملات وحملتها إلى مكتبها. لقد حان وقت العمل وعليها أن تطبع بعض الحسابات الخاصة بمتاجر لورنس. وفكرت وهي تُخرج إضبارته: «الحب يصنع المعجزات!» يا له من هراء! لقد شبعت من سيرة الكتّاب المزاجيين والعسكريين الأبطال، أما التجارة والحسابات فهذا موضوع آمن وراسخ وموثوق.

الفصل السادس

في الثالثة بعد الظهر خابر هالورنس ـ كعادته كل عصر جمعة منذ أن شرعا يخرجان معاً ـ ليرتب موعداً للسهرة. وأضاف يقول: «ارتدي شيئاً أنيقاً فسوف نذهب إلى مكان مميّز.»

ربما أنها باتت تعرف الآن مفهوم لورنس للشيء الأنيق، فقد استقبلته عند الباب مرتدية فستاناً أسود، وقد لفّت شعرها بشكل كعكة ناعمة وزيّنت أذنيها بقرطين صغيرين من الذهب، في حين كان ماكياجها جميلاً ومعقولاً لعلمها بأن لورنس ـ بخلاف ديفيد ـ لم تكن تجذبه صورتها كراقصة هولا من هاواي.

كان متوسط الطول، ممتلىء الجسم إلى حد ما، ذا شعر بنيّ وسالفين وخطهما الشيب، يرتدي بدلة رمادية مع ربطة عنق زرقاء داكنة، وينتعل حذاء إيطالياً أنيقاً، وكل هذه الأمور مجتمعة دلّت على رجل أعمال ناجح، على رجل رأسمالي ومحافظ، الأمر الذي كان يجذبها إليه.

قد يفتقر لورنس إلى الموهبة الطبيعية ولكنه متعقل... قد يفتقر إلى سحر صبياني معين إلا إنه وفيّ حتى الموت... قد لا يُسحر الجماهير بحلو حديثه إلا أنه دؤوب، وعطوف... توقفت عن فهرستها الذهنية بقرف، وسألت نفسها: لماذا أدافع عنه؟ وضدّ مَنْ؟ لست مضطرة لتبرير نفسي لأي كان! إني أميل إليه كثيراً، وإذا كنت أفكر جدياً بعرضه الزواج مني، فهذا شأني وحدي... وشأن كاتي.

وقال لورنس، مكرّراً العبارة التي لم تسمعها بسبب شرودها:

«قلتُ إنه لديّ مفاجئتان.»

«مفاجئتان؟»

«هذه الأولى.»

وهنا لاحظت، للمرة الأولى، الهدية التي كان يبسطها صوبها.

أطلقت هتاف ابتهاج وأخذت منه العلبة المستطيلة وفضّت عنها غلافها الفضيّ الفاخر. راقبها لورنس بحبور حين فتحت العلبة، لتكشف عن عقد لؤلؤي رائع تألق بياضه الناصع على البطانة المخملية السوداء. انتظر لورنس، ونظرته تزداد حبوراً واعتدادا بهديته، حتى رفعت العقد وبدت عاجزة عن النطق لشدة ابتهاجها.

لقد خرست بالفعل إنما ليس بسبب الابتهاج بل لأنها تذكرت فوراً ما قاله لها ديفيد مساء أمس: «سوف يُلبسك اللؤلؤ بسرعة...» حاولت طرد الفكرة بعيداً وفكرت في نفسها: يجب أن أعبّر للورنس عن امتناني... ثم إني أحب اللؤلؤ...

وهكذا أعلنت له بحزم: «لشدما يعجبني! إنه أجمل شيء رأيته في حياتي.» واستدارت لتدع لورنس يثبته وراء عنقها ثم قاومت شعوراً مباغتاً وجارفاً من الاختناق عندما زحف ثقل اللآلىء على جلدها. أوهمت نفسها بأن ذلك سخافة منها، ولكنها لم تقدر أن تكف عن العبث بالحبّات الناعمة وعن شدها ونتعها مثلما يرخي رجل ربطة عنقه في نهاية يوم مرهق.

«ممتاز!» أعلن لورنس ثم تراجع خطوة وتأملها بإعجاب: «ستكونين أجمل امرأة هناك.»

فتنحنحت قبل أن تسأل: «أين هناك؟»

«هذه هي المفاجأة الثانية. سنتعشى الليلة في أفخم مطعم في المدينة.»

«ليس في...»

«بالضبط ! مطعم البستان! قلت لي في الشهر الفائت إنكِ جدّ راغبة في التعرف عليه، لذا فكرت أن الليلة ستكون مناسبة تماماً لنزوره ولنحتفل بانتهائك من أعمالك الضرائبية.»

فأرغمت نفسها على الابتسام... ليلة أخرى واحتفال آخر في مطعم البستان... ما أحلى ذلك!

• • •

قالت كلير وهي تحاول ألا تتكلم بنزق: «أرجوك يا كاتي، إنتظري نصف ساعة فقط حتى أنهي عملي - ثم أساعدك في لعبتك. أعدك بذلك.»

ولمّا همّت بالاعتراض زجرتها بسرعة: «كفي... لا أريد أن أسمع كلمة أخرى!»

اقتنعت كاتي بأن أمها جادّة هذه المرة، فعادت إلى غرفتها بهمّة فاترة. وراقبت كلير خروجها بمزيج من الضيق والشعور بالذنب، فاليوم السبت ولم يكن يوماً مسلياً للطفلة، إذ أضطرت كلير لإهمال حسابات خاصة بسبب انصرافها الكامل لعائدات الضرائب. ليت كاتي تدرك بأن كثرة مقاطعتها ستطيل وقت عمل أمها. كذلك ستعمل هي بسرعة أكثر أذا استطاعت التركيز على الحسابات وتصحيح هذه الموازنة الملعونة! تنفست بعمق، وعادت تراجع الأرقام باحثة عن غلطتها. إلا أن تعبها ونكد مزاجها حالا دون تركيزها - لأنها ما انفكت تفكر في الليلة الفائتة، أو بتعبير أدق، ما انفكت تقارن بين الليلة الماضية

والأخرى التي سبقتها، بين سهرتها مع لورنس وسهرتها مع ديفيد، وتحاول ألاّ تعترف بأنها أحست... ببعض الضجر مساء أمس.

كانت ضجرة؟ عادت الأرقام تُغشي بصرها حين تركت ذهنها ينساق عائداً إلى السهرتين اللتين أمضتهما في مطعم واحد إنما مع رجلين مختلفين وفي جوّين مختلفين... هل ضجرت بالفعل من صحبة لورنس أم أن السهر المتوالي كان قد أتعبها؟ ولكن عندما ودّعها لورنس لم تتأثر كثيراً مثلما تأثرت بوداع ديفيد. لم تشأ... وهنا عنّفت نفسها بقولها: ولكني لم أُنكر أبداً إنجذابي إلى ديفيد، وما تظاهرت يوماً بأني أحب لورنس. إذن ليس من الإنصاف أن أبني فشل السهرة الماضية على تجاوب جسدي محض... كان الأمر أكثر من ذلك... كانت الطريقة التي سارعتْ بها إلى نزع العقد حال عودتي إلى البيت... كانت الطريقة التي يتُبعها لورنس في قص شعره الذي يعلو عنقه دائماً مسافة بوصة ونصف لا تزيد ولا تنقص، وهذا شيء غير طبيعي ومزعج! كيف لم ألاحظه من قبل؟

وفجأة عثرت على الغلطة الحسابية، لقد نقلت الرقم ٣٤ إلى مكان الرقم ٤٣. الحمد لله على أن عقلها اللاواعي كان ساهراً على عملها. سارعت إلى طبع التصحيح ثم أخذت تطبع إدخالات السجلّ العام: بعد قليل تنتهي ثم تشارك كاتي حلّ لعبتها الأحجية، وبعد ذلك تأخذان قسطاً من الراحة لأن كاتي مكثت الليلة الماضية عند جدّيها ولا ريب أنها سهرت كثيراً وتحتاج الآن لنوم قصير.

قال لورنس بأنه سيخابرها في وقت لاحق من النهار وكان

اقترح أن يمضيا السهرة في البيت مع كاتي ويشاهدا فيلم فيديو، ولكن الفكرة بدت لها الآن عديمة الإثارة على غرار سهرة الأمس... لعنة الله على ديفيد! شتمته بيأس وهي تخزن برنامجها وتطفىء جهاز الكمبيوتر. لقد باتت شبه مقتنعة بأنها لن تنجذب إلى رجل آخر كانجذابها إلى ديفيد، ولكن من الظلم أن تحول شخصيته بالذات دون شعورها بالانشراح حين ترافق رجلاً آخر... مجرد مرافقة!

المشكلة أنها اختلطت بديفيد أكثر من اللازم في الفترة الأخيرة. أما في الشهور الماضية فقد استمتعت بالخروج مع لورنس بقدر كاف جعلها تدرس فكرة الزواج منه! أجل، إن اختلاطها الزائد بديفيد هو علّة مشكلاتها الآن... فلقد أتخمت نفسها بسحره، وعليها أن تتذكر بأن هذا الغذاء السحري اليومي صار بدوره مضجراً ومزعجاً شأنه شأن قصة الشعر التي يواظب عليها لورنس.

إذن، وللمرة الثانية، لا ديفيد بعد اليوم... لا أكل مع ديفيد - لا فطور أو غداء أو عشاء. نقطة! من اليوم وصاعداً هو مجرد مستأجر وهي صاحبة مُلك تقوم بإصلاح الأعطاب بين حين وآخر... إنهما مطلقان وهي مخطوبة. لا قبلات بعد.

أرضاها هذا القرار الصائب بالعودة إلى حياتها الطبيعية، فغادرت مكتبها واتجهت إلى غرفة كاتي وهي تتساءل إذا كانت الطفلة ستعترض كثيراً على تناول الحساء مرة أخرى كوجبة غذاء. ثم حوّلت طريقها إلى المطبخ حيث استعرضت رفّ المعلبات بحثاً عن نوع شهيّ من الحساء قد يكون دخل المطبخ من تلقاء نفسه... وكانت تقف محدقة في رفّ العلب المألوف عندما رن جرس الباب.

لم تكلف نفسها عناء الركض لفتحه كون كاتي موجودة في البيت. وما أن بدأت تغادر المطبخ حتى رأت كاتي تنطلق كالصاروخ عبر الردهة وتهتف: «لا عليك يا ماما، أنا سأفتحه!» وما لبثت أن قالت للزائرين: «أهلاً، هل تودّان أن تساعداني في لعبتي؟»

وهنا وصلت كلير إلى الباب فشاهدت نعومي ماكسويل وزوجها يقفان على العتبة. وقالت لابنتها وهي تزيحها من الطريق ليدخل الضيفان: «كلا، إنهما لا يرغبان في ذلك.»

فقالت نعومي: «قد نفعل ذلك لاحقاً، أما الآن فلدينا فكرة أفضل.»

«ما هي؟ ما هي؟» سألت كاتي بانفعال.

«هل تناولتما طعام الغداء؟»

«لا، فالماما لم تفتح علبة الحساء بعد.»

«حسناً. اليوم موعد افتتاح مطعم جديد في المجمّع التجاري. مطعم مكسيكي يقدم الشوكولا وفطائر اللحم والكعك في طبق واحد.»

«أنت تمزحين!» قالت كلير وهي تحاول أن تتصور خليطاً كهذا.

فضحكت نعومي: «أجل، طعام غريب. يسمونه تشوكو - تاكو. اليوم موعد الافتتاح وقررنا أن نجربه، إذ بدا لنا أطيب من ساندويش السمك الذي كنا سنأكله. لماذا لا تأتيان معنا؟»

«كان بودي أن نفعل، ولكن لديّ بقيّة عمل ينبغي أن أُنجزه بعد الظهر.»

فقالت نعومي تغريها: «سيقدمون نماذج مجانية من هذا الطعام.»

[illegible]

كاتي، فيما وقفت هي مسمرة إلى الأرض.

فأخرجت كاتي رأسها من الشباك ونادت: «هيّا يا ماما، لقد أهلكني الجوع.»

حاولت كلير تسليط نظرتها الغاضبة على نعومي من خلال زجاج النافذة المرفوع إلا أن نعومي أشاحت عنها وأخذت تكلم زوجها. فقالت كلير في نفسها باستسلام، لا أستطيع الآن أن أتراجع. وهذا ما خططت له نعومي... صعدت إلى السيارة وصفقت الباب بقوة... لقد مات قرارها في مهده. فهذه هي المرة الثانية في خلال أسبوع تعاهد نفسها على الابتعاد عن ديڤيد لتجد نفسها بقربه!

وفيما هي تساعد كاتي على ربط حزام الأمان، وقبل أن يدير ديڤيد محرك السيارة، لمحت الابتسامة التآمرية التي تبادلها مع نعومي عبر المرآة الصغيرة... إذن، انتقلت نعومي إلى معسكر العدو! حسناً، لقد وقعت على السر ولن تدعهما يخدعانها مرة أخرى.

ولكن لما صاروا في المجمّع، وفيما كانت تأكل «التاكو» المجاني وجدت نفسها مُسيّرة لا مُخيّرة وهم ينتقلون من متجر إلى آخر. فنعومي والكابتن كانا يسيران في المقدمة محتظفين بكاتي بينهما، الأمر الذي أرغم كلير على السير مع ديڤيد. حاولت مراراً أن تنضم إلى الركب الثلاثي إلا أن نعومي كانت تنجح كل مرة في إبعادها. وأخيراً قالت لديڤيد بصوت كالفحيح: «هذا ظلم! إثنان ضد واحد!»

«كل شيء جائز في الحب والحرب.»

وقدّم لها آخر قطعة لديه من الحلوى فقالت: «نحن في حرب وأنا لا أقبل طعاماً من العدو.»

«كلير، كونك طاهية فاشلة عليك أن تقبلي الطعام من أي شخص يعرضه عليك.»

لم يسعها إلا أن تضحك وتقر بأنه يستحيل عليها أن تبقى غاضبة من ديڤيد فترة طويلة... لقد جاءت وانتهى الأمر، وحصلت على غداءٍ مجاني، وكاتي في قمة اللهو والسرور، فلماذا لا تسترخي وتستمتع بوقتها؟

وبالفعل، وجدت متعة في استعراض معروضات الحوانيت، وفي سحب كاتي من متاجر الألعاب وسحب الكابتن من المكتبات.

«ماما، ماما أنظري!» هتفت كاتي فجأة وهي تركض إلى واجهة تعرض صفوفاً متعددة من أجهزة التلفاز الملونة، كانت تبث برنامجاً واحداً من الصور المتحركة.

«أنظري! تلفازات ملّونة! كلّها ملّونة! لماذا هي خالية من النقط البيضاء التي نراها على شاشتنا؟»

فأغرق ديڤيد في الضحك وقال مقلداً كاتي: «نعم يا ماما، لماذا هي صافية؟ ألأنها جديدة وليست مثل تلفازنا الذي صار عمره مئة سنة؟» ثم انحنى ليواجه ابنته وأضاف: «كاتي، هل لك أن تخبري أمك بأن الوقت حان لنبتاع تلفازاً جديداً؟ أخبريها أن جميع صديقاتك لم يسمعن حتى بتلفاز أبيض وأسود.»

فهزت كلير رأسها وأوشكت أن تنفي قدرتها المادية على شراء جهاز جديد ولكنها سمعت كاتي تقول لأبيها بجدية تامة: «ميزانيتنا لا تسمح لنا بشراء تلفاز جديد.»

فتجمدت كلير وحدّقت في وجه الطفلة الذي كان يعكس قلقها هي ويردد صداه، وشعرت بشيء يتقصف فجأة في داخلها.

«بل نستطيع يا كاتي! ميزانيتنا تسمح بشراء جهاز جديد.»

أذهلها نطقها لهذه الكلمات ولم تكن صدمتها بأقل من الصدمة التي ارتسمت على الوجوه التي استدارت لتحملق فيها.

ارتج عليها فسارعت إلى القول بكذب وتلعثم: «خطر لي... منذ أيام أننا صرنا بحاجة لتلفاز جديد... لماذا لا نقوم... بجولة قصيرة لنستعرض الأنواع... وقد أقرر عندئذ شراء جهاز في الأسبوع المقبل.»

فسألتها كاتي بدهشة متناهية: «تلفاز جديد؟ وملّون؟»

فأومأت وهي تشعر بحرارة الحرج تورد وجنتيها. وسألها الأربعة معاً: «ستفعلين ذلك حقاً؟»

فهتفت: «ما بكم؟ لماذا يصعب عليكم أن تصدقوا ذلك؟ نحن نحتاج تلفازاً جديداً، فأين المشكلة؟»

فقال ديڤيد مسرّياً عنها: «كلير، لا تغضبي... كل ما في الأمر انك تشبثت بذلك الجهاز مدة طويلة... والمعروف عنك أنك... أقصد أنك في منتهى الحرص الماديّ و...»

وهنا ساعدته كاتي بقولها: «يقول بابا إنك أكثر إمساكاً من لحاء الشجر.»

فشعرت بارتفاع الحرارة في وجهها... وارتبك الزوجان ماكسويل متشاغلين بالنظر إلى مسجلات فيديو معروضة في الواجهة، في حين كان ديڤيد يحاول جهده ألاّ يضحك بصوت مرتفع وقد بدأت كتفاه تهتزان بفعل المحاولة.

فتمالكت كلير نفسها وسألت بلطف: «أهذا ما يقوله بابا؟ إذن، لماذا لا ندخل ونسأل البائع عن هذه التلفازات؟»

ولجوا المتجر، وقد خفت توتراتهم، وطفقوا يقارنون بحماسة بين أحجام الشاشات المختلفة وأسماء الشركات

المنتجة للتلفازات. ولكن كلير أصغت نصف إصغاء لحديث البائع المتحمس إذ كان ذهنها ما يزال يحاول التأقلم مع الذي حصل: لقد وافقت، أمام شهود، بأن تصرف بضع مئات من الدولارات... لماذا وافقت؟ ولماذا يصعب عليها ذلك؟

أمضت بقية الوقت في تأمل ذاتي هادىء، مستعيدةً استذكار المشهد الذي جرى قبالة المتجر... لقد عرفت كاتي مسبقاً بأن أمها سترفض دعوة نعومي إلى ارتياد المجمّع، ولم تعرف فقط بأن كلير ستمانع في شراء تلفاز، بل عرفت بالضبط كيف سيكون جوابها الرافض... عرفته كلمة كلمة... هل هي في نظر الآخرين امرأة تدمن على العمل، وتتميز بالبخل والتقتير لدرجة الرُخص؟ هل تنظر كاتي إليها فعلا بهذا المنظار؟ وسائر الناس؟ وحتى نعومي والكابتن اللذين لم يتعرفا إليها إلا منذ بضعة أسابيع؟

إنهما تقدران بالطبع أن تبتاعا تلفازاً جديداً باتتا في أمس الحاجة إليه! إذن لماذا تبادرت كلمات الرفض إلى شفتيها، وكانت ستنطقها ما لم تسارع كاتي وتسبقها إلى نطقها؟ إن الحرص في الأوقات العصيبة تصرف يدعو إلى الإعجاب، وهي تربّت على هذا الحرص - والله وحده يعلم بأنها مرت بظروف مادية صعبة مع ديفيد، ولكنها لا تشكو الآن من أي عُسر، فلماذا سارعت إلى التأكيد بأن ميزانيتها لا تسمح؟ إن حرمان الذات من أجل الحرمان نفسه لا يخدم أي غرض.

لقد أحرجها كثيراً أن ترى نفسها منعكسة في تلك الوجوه الأربعة التي حدقت فيها منذهلة لفكرة ابتياعها تلفازاً جديداً. كذلك وجُرحت مشاعرها، ولكن أكثر ما ضايقها هو معرفتها

بأنهم قد يكونون على صواب. فها هي كاتي تمرح متوردة الوجنتين وتقهقه بحبور وهي تتزلج على الجليد... متى كانت آخر مرة خرجت فيها مع كاتي بقصد اللهو والتنزه؟ منذ وقت طويل، فهي دائمة الانغماس في عملها، والمخابرات الهاتفية لا تتوقف، وكل زبون يطالبها بالإنجاز السريع... ولكن لا يجوز أن تختلق لنفسها الأعذار، إذ هل كل هؤلاء الزبائن أكثر أهمية من فرح كاتي؟

لماذا صارت هكذا؟ إستذكرت بعض الأمثال القديمة: «درهم مُدَخَّر هو درهم مكسوب.» «إعتن بالبنس فيتكفل الدولار بنفسه.» هل أخذت بكل تلك الأمثال التي نشأت على احترامها، ثم شوهتها إلى حدٍ صارت ابنتها عنده طفلة محرومة؟

لم تتوقف تأملاتها إلا بعد وصولهم البيت وانصراف كل فريق إلى شقته. وقالت في نفسها وهي تعلّق المعطفين في خزانة الردهة: الشيء الأكيد وسط هذه الحيرة هو أننا سنشتري تلفازاً جديداً... كانت كاتي قد دلفت إلى غرفة الجلوس وأدارت الجهاز القديم. نظرت كلير إلى الساعة لترى أية برامج تُعرض حالياً وفطنت إلى تأخر الوقت... شعرت بالذنب لأنها لم تكن في البيت لتتلقى مخابرة لورنس. ثم تذكرت شيئاً آخر جعلها تبتسم بمكر: لقد أكثروا من أكل الطعام المكسيكي ولن تضطر لطهي العشاء!

«مات الملك!» هتف ديفيد بانتصار وهو يُقدّم فارسه الفضيّ الصغير إلى مربّع آخر.

فهز الكابتن رأسه الشائب وقال: «أنت لم تدحر الملك، وكل ما فعلته هو انك اعتقلت جندياً من المشاة. ثم كان من

المفروض أن تقول «إستسلم.» وتعبير «مات الملك» تُقال في لعبة الشطرنج.»

«أوه.» وراجع ديڤيد الدفتر الأصفر الذي كان قد دوّن فيه ملاحظات تختص بتفاصيل اللعبة الحربية التي ابتدعها الكابتن، ثم سأل مضيفه: «هل عليّ الآن أن أقود كتيبة وأحاصر... هذا المكان... ماذا تسميه؟ آه، مؤخرتك؟»

«إنه جناحي. إنما عليك أولاً أن تلقي الزهر وتحصل على دشش.»

«أوه.» حدّق ديڤيد في فلول جيشه وفي قوّات الكابتن الجرّارة المصْطَفّة أمامها واحتار في أمره، ثم سأله: «أيحق لي أن أستسلم الآن؟»

فرّد سام بازدراء: «من الخير أن تفعل، فمن بداية اللعبة كنت خصماً ضعيفاً.» ثم استند إلى ظهر مقعده وركّز على الشاب نظرة حادة طالما أرعبت جنوده في الماضي، وسأل بصوت مرعد: «ما سبب شرودك؟»

ودّ ديڤيد لو يستقيم في جلسته ويواجه الكابتن ولكنه يدرك بأن أسلوبه الفظ هو عادة اكتسبها عبر سنيه العسكرية الصارمة حتى صارت عباراته أشبه بالأوامر. وأجابه الآن بتحفظ: «لا شيء مهماً. كل ما في الأمر أنني منشغل البال قليلاً.»

«أجل، فلولا شرودك لما سحقتْ قواتك البريّة في أقصر معركة عرفها التاريخ! ماذا يشغلك؟ وسيلة جديدة تدبرها مع نعومي لاستعادة زوجتك؟»

فأجابه الشاب ضاحكاً: «كلا، ولكن لن يدهشني أن تكون زوجتك تخطط لشيء في هذه اللحظة. إنها حليف ممتاز.»

«نعم، هي كذلك في ما يختص بالأمور الرومانسية. والآن، أطلعني على السبب الحقيقي الذي جعلك تخسر اللعبة؟»

فتهدلت كتفاه وأسند مرفقيه على الطاولة وقال متنهداً: «أحسبني أعاني من عائق الكاتب، من انسدادٍ ذهني مؤقت. لقد خابرني الناشر يوم أمس وأصر على إعادة النظر في فصول الكتاب الأخيرة التي أرسلتها إليه. ولكنني... لا أشاطره رأيه بتاتاً!»

«هل صارحته بهذا؟»

«أجل، ولكن الناشرين لهم آراؤهم الخاصة. وبما أنهم أصحاب القرار في ابتياع الكتاب أو رفضه...»

ترك العبارة معلقة فأومأ الكابتن متفهماً ورطته. ومضى ديڤيد يقول وكأنما لنفسه: «الغريب في الموضوع، إن روايتي الأولى «خضرة الربيع.» كتبتها بصعوبة شديدة كما لو كانت مخاضاً، ولكن روايتي الثانية هذه، سارت بيسر من البداية، وكنت راضياً عنها تماماً - والآن يأتي الناشر ليقول بأنها تافهة، أو بالأحرى، الفصلان الأخيران. ولذا يريد إعادة كتابة كاملة! شهران من العمل سيذهبان سدى!»

فقال الكابتن بواقعية: «لو كنت مكانك لما جلست هنا أضيع وقتي مع الألعاب والكهول المتقاعدين بل انصرفت كلياً إلى الكتابة.»

استغرب ديڤيد جوابه إذ توقع منه بعض التعاطف كون «عائق الكاتب» علّة خطيرة ومعترفاً بها طبياً. لكنه هز كتفيه محاولاً إقفال الموضوع بخفة وقال: «أحسبني أنتظر نزول الوحي.»

«الوحي! هذا هراء!» ثم بدأ يجمع الجنود الصغار ويرصهم في صندوق صغير، وتابع: «لدينا مقولة في الجيش تؤكد بأن

الوحي يشكّل جزءاً واحداً من الحياة فيما يشكّل العرق أجزاءها التسعة والتسعين الأخرى.»

«هذا في الجيش، أما الكتابة فهي - فنّ.»

«بل الكتابة عملك ومهنتك ولديك مسؤولية تجاههما. لا يسعك أن تعوم مع الأيام في انتظار أن يضرب الوحي رأسك. ما هي أهدافك يا صبيّ؟ ما هي غايتك؟ إلى أين أنت ماضٍ بعملك الكتابي هذا؟»

فتح ديڤيد فمه ليقول أي شيء يردّ به على وابل الكابتن الناريّ إلا أن ذهنه خانه كلياً، ووجد نفسه، على غير عادة، عاجزاً عن أعطاء جواب سهل وسريع ومتباهٍ، وعن التأثير على الكابتن بسحره وسرعة بديهته اللذين طالما خدما أغراضه في الماضي.

ما هي أهدافه؟ ولم يعثر على أي جواب لهذا السؤال... كان يقدر في الماضي أن يجيب بجهوزية: «أريد أن أصبح كاتباً شهيراً.» حسناً، اليوم صار هكذا، إنما ماذا بعد؟

جلس يحدق إلى الكهل بعجز وقد شعر فجأة بأن لا سيطرة له على حياته، شأنه شأن الجنود الألعاب الذين كان الكابتن يلتقطهم ويصفهم في علبة مقفلة تاركاً إياهم في الظلام.

الفصل السابع

لم يكن قرار كلير بفك ارتباطها بديڤيد قراراً سهلاً كونها تشاركه بيتاً وطفلة. كانت تقدر بالطبع أن تدفع أجرة نقل التلفاز إلى بيتها، برغم أنها تكره التخلي عن خمسة وعشرين دولاراً إضافياً، إلا أن ديڤيد عرض من تلقاء نفسه أن يجلب الجهاز، وها هو يُدخل الصندوق الكرتوني الثقيل إلى غرفة الجلوس.

«أشكرك جداً على هذه المساعدة يا ديڤيد.»

«على الرحب والسعة.» ثم أنزل الصندوق إلى الأرض وأردف: «يا لثقله! لا بد أنك ابتعت النوع ذا الشاشة العريضة.»

فقالت باعتداد: «إنه جهاز أنيق وجميل.»

لقد استمتعتْ هي وكاتي في اختيار هذا التلفاز الملوّن... وودت أن تُعلم ديڤيد بأنه غالي الثمن، ويمكن التحكم به عن بُعد، وعلامته مشهورة... هاه! ستريهم بأنها ليست بخيلة كما أشعروها!

وبان الإعجاب على ديڤيد حين تمكّن أخيراً من فتح الصندوق وإخراج الجهاز من لفائفه الإسفنجية، وأعلن بأنه أنيق بالفعل. ثم رفع الجهاز القديم من على منصته ووضعه في إحدى الزوايا وركّز الجهاز الجديد مكانه.

أعجبت كلير بمنظره وبخشبه المصقول وبلوحة أزرار التحكم، وقالت بفخر: «هل لاحظت ميزاته اللونية الآلية؟»

ولكن ديڤيد لم يسمعها. كان قد بحث طويلاً في الصندوق

حتى عثر على كتيب التعليمات وعكف الآن على تصفح الرسوم البيانية وقد غشت وجهه نظرة استياء مضحكة. ثم مشى إلى خلف الجهاز وأمسك بأحد الأشرطة الموصلة للهوائي.

«أعطني إياه.» قالت كلير ضاحكة وأخذت منه الشريط الذي كان يتفحصه وكأنه أفعى غريبة.

«تفضلي، بكل سرور!» ثم ناولها كُتيب التعليمات وأضاف: «وهذا لك أيضاً. ما رأيك أن أجهز شيئاً للعشاء ريثما تجهزين لنا سهرة تلفزية مسلية؟»

«إنني أطهو بعض اليخنة وهي على النار.»

فقال بدماثة: «إذن سأذهب وأعالج ذلك الطعام المعلَّب ليصبح صالحاً للأكل.»

«وما الذي يحملك على الظن بأنه مُعلَّب؟ تعلم أن باستطاعتي أن أطهو بعض المآكل، واليخنة سهلة الصنع.»

ولكنه لم يلق بالاً إليها وتابع مسيره إلى المطبخ فهبّت واقفة وقالت وهي تمر به وتسبقه إلى المطبخ: «أحتاج مفك براغي من درج الأدوات.»

زرعت نفسها أمام المنضدة المجاورة لموقد الغاز وأخذت تبحث في الدرج محاولة إخفاء العلبتين الفارغتين عن نظره... فقال متنهداً: «كلير، كلير...» ثم أزاحها جانباً وقرأ المكتوب على العلبة بصوت عالٍ: «يخنة لحم - قطع مكتنزة.»

لم يرقها تصرفه بتاتاً، فهي ليست مثله؛ لا تجعله يشعر بالنقص لأنه لا يستطيع أن يدق مسماراً على نحو سويّ. وقالت له بجمود: «أُرحب بك ضيفاً على العشاء.»

فأجاب بهلع مصطنع: «حسبت أننا أنسجمنا كثيراً في الفترة

الأخيرة! حسبت أننا صديقان فلماذا تريدين إيذائي بيخنتك المعلّبة؟»

وهنا طفحت كأسها! صفقت الدرج بعنف واستدارت لتواجهه وهتفت وهي تصوّب المفك إلى صدره: «ديفيد أولسون، ليكن في علمك بأني لست طاهية سيئة إلى هذا الحد!»

«منذ متى؟»

«نعومي زودتني ببعض الإرشادات. ومنذ أيام طهوت لحماً محمّراً بالقِدر ولم يجفّ بتاتاً!»

عَرَفتْ بأنها بدت سخيفة، ولكنها لم تعد تحتمل انتقاداته لطريقة صرفها المال وطريقة عملها وطهوها. ثم أضافت بجرأة استمدتها من مشاعرها المجروحة: «بل سأذهب إلى أبعد من ذلك وأدعوك لتناول العشاء غداً.»

فلم يكلف نفسه عناء التظاهر بالحماسة.

«سوف أجهز شيئاً مميزاً، شيئاً سيدهشك.»

«مثل ماذا؟»

«إنها مفاجأة.» ورفعت ذقنها بشموخ وعجرفة، متحدية إياه بأن يضحك.

بما أن كلير تستطيع أن تقرأ كتاباً في الطبخ فهي تقدر بالتالي أن تطهو على نحو ما وإن كان نتاجها أقل من عادي. كانت أساساً لا تميل إلى الطبخ وتعتبره مضيعة للوقت - صرف ساعات في تحضير وجبة ليلتهمها المرء في دقائق - وهكذا لم تهتم أبداً بأن تتعلم أكثر من بضع وصفات أساسية كانت كافية في نظرها لأن تبعد الجوع عنها وعن كاتي. وتمنت الآن بحرارة أن تزودها نعومي بوصفة طهوية تستطيع التعامل معها.

وأجابها ديڤيد باسماً: «حسناً، سأجرب هذا العشاء، فأنا مستعد دائماً للمغامرة والتحدي. والآن، لماذا لا تعودين مع المفك إلى تلفازك الجديد وأعالج أنا هذا اللحم المكتنز بطريقة سحرية ما؟»

«حسناً.»

كان روعها قد سكن إلى حد ما، فعادت إلى غرفة الجلوس حيث حشرت نفسها بين الجدار والجهاز وبدأت بوصل الأسلاك.

وفي وقت لاحق، بعدما تناولوا يخنة لذيذة بفضل ديڤيد، جلسوا باسترخاء على الأريكة يتسلون بأكل البوشار وبمشاهدة برامج متعاقبة. في البداية، انسحرت كاتي بالمشاهد الملونة ولكنها ما لبثت أن استسلمت للنوم. وحتى كلير بدأت تشعر بالملل عندما عرضوا مسلسلاً سخيفاً آخر. حول أب وأولاد يعاملهم بإعزاز لا يُصدَّق. إلتفتت إلى ديڤيد الذي بدا شديد الاهتمام بالبرامج ولكن، لمعرفتها الوطيدة به أدركت بأنه كان في عالم آخر.

«أتريدني أن أقفله؟»

«ماذا؟»

«التلفاز. لا أخالك تتابع البرنامج فعلاً. هل أطفئه؟»

«أوه، لا أدري. من الخسارة أن نمحو صوراً جميلة كهذه على الرغم من تفاهة المسلسل. لماذا لا تخفضين الصوت حتى النهاية كي نتمتع بالألوان الرائعة؟»

فضحكت وأطفأت الجهاز، واستشعرت ثانية انشغال باله فقالت: «أنت هادىء جداً، هل ثمة ما يزعجك إضافة إلى خشيتك من تناول طهوي مساء غد؟»

ولكن مزاحها لم يلقَ صدى عند ديڤيد الذي قال بكآبة: «كنت أتساءل في الدرجة الأولى، كيف يُسمح لبرنامج تافه كهذا بأن يُبث على الهواء؟ وكنت أفكر ببعض الآراء الجديدة التي يريدني الناشر أن أستعملها في كتابي، وأحاول إيجاد نهاية حسنة لقصتي خلافاً لهذا المسلسل المعلّب الباهت.» ثم شرح لها مضمون انتقادات الناشر وأضاف: «ذكرت ذلك للكابتن فوجّه إليّ انتقادات لاذعة وأمرني بأن أكف عن النحيب وانصرف إلى إكمال القصة.»

«حقاً؟» لم تقدر أن تتصور الكابتن منخرطاً في حديث طويل!

«أجل، طرح عليّ أسئلة في غاية الإحراج وجعلني أبدو رجلاً لاهياً وعاطلاً عن أي عمل... كلير؟ ماذا تمنيت أن تكوني في المستقبل؟»

«راقصة باليه.»

«أنا جاد في سؤالي.»

«وأنا كذلك. كانت رغبتي دائماً أن أصبح راقصة باليه.» كان يرمقها باستغراب، فأردفت مبتسمة: «أوه، أعرف بأني مُحاسبة باهتة ومضجرة، وكبيرة في السن وقصيرة القامة إنما هناك جزءٌ مني سيظل أبداً ينتظر في الكواليس لحظة الظهور على المسرح - ولكن ما علاقة هذا بحديثنا؟»

لم يجبها وازدادت نظرته كآبة... لم يعرف هذا الشيء عن كلير - زوجته وشريكة حياته... كيف استطاع ألا يعرف ذلك؟ عما كانا يتحدثان طوال أعوام زواجهما؟ كانا يتحدثان عنه هو، عن أهدافه وخططه ورغباته، عنه هو فقط! أجفله هذا التكشف المفاجيء فاحمر وجهه وشعر بضيق شديد في

داخله... هل كان فعلا منهمكاً في شؤونه الذاتية إلى ذلك الحد؟

«ديڤيد؟ ما بك؟» سألته بقلق إذ لم تره أبداً على هذا القدر من الجدية.

«هل تظنينني عديم النضج، وبلا هدف أو دوافع؟»

«ماذا؟»

«هل أبدو لك رجلاً أحمق، رجلاً...» والتوت شفتاه بمرارة - وتابع: «تصوري أن تخونني سائر الأوصاف المناسبة، أنا الذي أسمي نفسي كاتباً!»

«بالطبع لا أراك كذلك، بل أعتقد أنك موهوب وعطوف و...» وجدت نفسها عاجزة عن الاستمرار لعلمها بأنها ألصقت به كل تلك الأوصاف الأخرى في وقت أو آخر.

تلقى ديڤيد جوابها من صمتها، فهبّ واقفاً وملقياً بصحن البوشار على الأرض وقال: «هذا ما حسبته. حسناً، من الخير أن أنصرف إلى العمل وأقوم ببعض المراجعات الكتابية.» ثم طبع قبلة سريعة على خدّها وتوارى.

بعد انصرافه بدأت تجمع حبوب البوشار المتناثرة على السجادة... لقد بات ديڤيد يحيّرها أكثر فأكثر بتصرفاته الغريبة عنها، عقده النفسية، حتى لكأنه غير الزوج الذي عرفته مثلما كانت تعرف نفسها. تنهدت حائرة ثم أضاءت جهاز التلفاز.

حين رنّ جرس الهاتف بعد ظهر يوم الجمعة نظرت كلير آلياً إلى الساعة فإذا هي الثالثة... «كم هو دقيق في مواعيده...» فكرت بانزعاج وهي ترفع السمّاعة لترد على لورنس.

وقالت بعد تبادل التحيات: «يبدو إني مضطرة لتأجيل سهرتنا فالليلة ستشترك كاتي في تمثيلية مدرسية وهي في غاية الفرح والانفعال. لا مناص لي من حضورها.»

«متى تبدأ؟ سأوصلكما بسيارتي.»

«أوه، لا تتعب نفسك. لقد تدبرنا الأمر.»

وإذ صمت لورنس على الطرف الآخر أدركت بأنه ينتظر منها شرحاً فقالت بتردد: «ديڤيد سيوصلنا إلى المدرسة.»

استمر سكوته الدالّ على استيائه فلعنت الظروف في سرّها وتساءلت لماذا يشعرها لورنس بالذنب كلّما ذكرت اسم ديڤيد؟ إنه والد كاتي، ومن الطبيعي أن يرغب في رؤيتها تمثل للمرة الأولى. ومضت تقول بسرعة: «كاتي ستمثل دور شجرة... ولذا قد تتساقط الأوراق الدبقة داخل سيارتك.»

فأجابها بنبرة مؤنبة: «بوسعي أن أتحمل سقوط بعض الأوراق.»

«بالطبع، ولكني وعدت كاتي بأن نذهب مع والدها و...»

«ولكنها ليلة الجمعة وأنت تعرفين بأننا نمضيها معاً دائماً.»

«أجل، أعرف، أعرف.»

كانت معجبة دائماً بأسلوبه الحياتي المنظم، بدقته وكفاءته ولكن عناده الآن ضايقها، فقالت بحزم: «لا بد لي من الذهاب. علينا أن نرتب لسهرة أخرى.»

«فهمت. سأراكِ إذن عندما تأتين بالحسابات إلى المكتب فنتفق على موعد محدد.»

«أجل، سيسعدني ذلك.»

ارتاحت لما أقفلت الخط، واستأنفت تجهيزها لثوب كاتي

الرقيق الذي ألصقت عليه كمية كبيرة من الأوراق الخضراء ليبدو مثل شجرة كثيفة.

ولما جلست تلك الليلة مع ديڤيد في قاعة المدرسة المحتشدة بالأهالي وجدت أن وقتها لم يضع سدى إذ بدت كاتي فائقة الحلاوة كشجرة مهمة في غابة «شيروود» التي طالما آوت «روبن هود» وقد لعب دوره صبي منمش الوجه. كانت تلك «الأشجار» تحرك أقدامها بطبيعة الحال وتُحدث حفيفاً قوياً وكانت أوراقها تغطي أرض المسرح ولكن، بشكل عام، كان الأداء رائعاً وهذا ما أكدّاه لكاتي في ما بعد.

لدى رجوعهم إلى المنزل، عاونها ديڤيد في إخراج كاتي من ثوبها، وفي إزالة الصباغ الأخضر عن وجهها وساقيها. وبعدما آوت الطفلة إلى فراشها كان على كلير أن تجلي صحون العشاء الذي أكلتاه بسرعة قبل وصول ديڤيد. ولكنه حين تبعها إلى المطبخ ورأى الأطباق والأواني على المنضدة، عرض مساعدته فقالت وهي تناوله ممسحة الصحون: «شكراً. ولكن إياك أن تنتقد طهوي بكلمة واحدة!» وكان واضحاً من بقايا الطعام أنهما تناولتا أصابع سمك ومعكرونة وجبنة.

وقال مجيباً: «لن أفوه بكلمة إذ يجدر بي أن أكفّ عن إغاظتك بعد العشاء اللذيذ الذي طهوته تلك الليلة.»

«لقد نجحت فيه، أليس كذلك؟»

«إلى درجة كبيرة.»

كان بالفعل طعاماً ناجحاً، فقد أنجدتها نعومي بوصفة بسيطة وفخمة لسمك مشوي مع صلصة زبدة وليمون، أرفقته ببطاطا مُحمّرة وسلطة بالخل، وصنعت قالب حلوى الشوكولا الذي أكلت منه كاتي حتى الشبع.

وقالت له الآن: «لديّ بقية من قالب الحلوى. أترغب في قطعة؟»

«بالطبع!»

سار إلى الخزانة وأخرج طبقتين ثم وضع إبريق القهوة على النار... كانا يعملان معاً برفقة صامتة وكأنهما زوجان قديمان... هذا ما أدركته كلير فجأة. واستمر شعورها هذا أثناء اشتراكهما في شرب القهوة وتناول الحلوى والتحدث بفخر عن أداء كاتي. لقد استطاع الليلة أن يتخلص من الكآبة التي لازمته في الأيام الأخيرة منذ أن تكلم مع الكابتن، ومع ذلك خالجها شعور بأن ذلك الحديث الصاخب قد ترك فيه أثراً عميقاً ودائماً. كذلك أحست بأنها قريبة منه جداً، هذه الليلة، ولذا حين شيعته إلى الباب وبدا راغباً في عناقها لم تتردد لحظة واحدة، فكل ما فيه مختلف هذا المساء... لم يتعمد إثارتها ومطالبتها بتجاوب يعتبره حقاً من حقوقه. لقد استطاعا توجيه عناقهما وضبطه بحيث أدفأهما بتمهل بدل أن يلفح ويحرق كالنار في الهشيم. ووجدت نفسها تأخذ زمام المبادرة فتتعلق به أكثر وتزداد حدة مشاعرها. ولكنها ذهلت حين خف ضغط يديه وتراجع خطوة وقال بلطف: «أظن أن صداقتنا هذه بدأت تروقني.»

كان تنفسه السريع يُكذب كلماته، وتلاشت ابتسامته لما وقف يتأمل شعرها الطويل الداكن وعينيها الخضراوين اللوزيين اللذين حدّقتا فيه حائرة.

وقال هامساً: «كلير، أطلبي إليّ أن أبقى هنا.»

كان، للمرة الثانية، يمنحها حق الخيار والقرار كيلا تضع اللوم على عاطفتها المشبوبة إذا ما فقدت السيطرة على

مشاعرها. فأرادت أكثر من أي وقت مضى في السنتين المنصرمتين أن توافق، ولكنها استجمعت كامل إرادتها وهزت رأسها بالرفض. فما كان منه إلا لمس وجنتها بلطف وغادر الشقة. هكذا... من دون إقناعات أو إصرار على طريقته الساحرة الممازحة... مجرد ابتسامة ولمسة ثم اختفى. ووجدت نفسها تتمنى لو أنه ألحّ وطالب وتملق... وبدالها أن اختيار الرفض لهو أصعب على المرء بكثير من اضطراره لأن يرفض.

في الأسبوع التالي وجدت صعوبة في إيجاد ديڤيد بعدما اعتادت على قربه الدائم منها، وحيث كان يطرق بابها في أوقات غير مناسبة، ويزورها كلما أتى بكاتي أو أخذها، ويستغل كل فرصة للمضيّ في حملة استردادها كزوجة. أما الآن فيبدو أنه أخذ بنصيحة الكابتن وانصرف إلى الكتابة بشكل محموم. ومع اقتراب أيار/مايو وازدياد الدفء فتح ديڤيد نوافذه فصار صوت النقر المستمر على مفاتيح الكمبيوتر يصل إلى مسمع كلير الجالسة في مكتبها المفتوح النوافذ أيضاً، وحيث تنقر بدورها على مفاتيحها إنما ببطء.

كانت تعتبر نفسها محظوظة جداً لاستطاعتها العمل ضمن منزلها. وكونها إنسانة منظمة فقد خصصت لشغلها أوقاتاً محددة وصارمة. أما هذه الأيام فهي تجد صعوبة في التركيز، وصارت، لسبب ما، تترك مكتبها وتتجول في أرجاء البيت، تارة تفتح الثلاجة وتحدق فيها وطوراً تسقي النباتات، وفي إحدى المرّات أرعبت نفسها حينما تركت شغلها وجلست تشاهد مسلسلاً على التلفاز الجديد!

والآن عادت إلى شرودها وأخطأت في حساب الإدخال الأخير، كما أن النقر المستمر الآتي من فوق أخذ يؤثر عليها مغناطيسياً ويُشعرها بالنعاس، مع أن الساعة لم تتعد التاسعة والنصف صباحاً. تناولت فنجان القهوة وشربت منه جرعة. آملةً أن يحرّك الكافايين دورتها الدموية. ثم حملت الفنجان ووقفت أمام النافذة المفتوحة تعب هواء الربيع النضر.

من الطبيعي أن تعجز عن التركيز ما دام الربيع حلّ أخيراً وانقلبت الأمور، في المدة الأخيرة، رأساً على عقب. أولاً، هناك تصرفات ديڤيد الغريبة جداً، وتجاوبها العاطفي الغريب... وثانياً هناك التغيير الكبير الذي طرأ على علاقتها بلورنس... ففي منتصف الأسبوع خرجت معه مكرهة لتعوّض عن سهرة الجمعة المفقودة، وأصرت على أن يأخذا كاتي معهما - الأمر الذي راق لكاتي ولورنس! والآن، وجدت نفسها نافرةً من الساعة الثالثة - موعد مخابرته الهاتفية الأسبوعية.

وقع بصرها صدفة على سيارتها القديمة الجاثمة تحت النافذة. لماذا لا تأخذ كاتي في نزهة ريفية هذا العصر، وبذلك تكون بعيدة عن البيت عندما يخابرها لورنس؟ بالطبع، هذه السيارة المسكينة المهلهلة قد لا تتحمل رحلة كهذه، كما أن زيتها بحاجة إلى تغيير، وحزام المروحة الجديد الذي ابتاعته كلير ما يزال في المرآب... نظرت عبر كتفها إلى الكمبيوتر المضاء ثم نظرت ثانية إلى الصباح الربيعي المتألق وإلى سيارتها العليلة، وسارعت إلى إطفاء الجهاز، وفي أقل من عشر دقائق كانت تستلقي على ظهرها تحت محرك السيارة وقد بدلت ملابسها إلى البزة الفضفاضة التي ترتديها في

أعمال الإصلاح وتعلقها على حائط المرآب.

كانت مستغرقة في عملها فلم تلاحظ الصمت الذي ران على مكتب ديڤيد. ولما أخذت تشتم بصوت مرتفع وهي تحاول حلحلة مصفاة الزيت. لم تسمع وقع خطاه على الحصى، ولذلك أجفلتها تحيته المفاجئة. وإذ حاولت الجلوس ارتطم جبينها بمحور العجلتين.

خرجت زحفاً من تحت السيارة وهتفت: «إياك أن تتسلل نحوي هكذا!» ثم فركت موضع الألم في جبينها فتلطخ بالشحم الأسود. وقال ديڤيد محتجاً: «لم أتسلل نحوك. هل أنت بخير؟»

«نعم، أنا بخير. إنها مجرد رضّة.» ثم تطلعت إليه من حيث تجلس على الحصى وسألته: «ماذا يدور في رأسك؟ سمعتك تعمل بجنون في قصتك.»

«قرّرت أن أستريح قليلاً... وأنت تبدين في حاجة لبعض المساعدة.»

«أوه... حسناً، بوسعك أن تناولني الأدوات إن أردت. من المزعج أن أعاود الزحف كلما احتجت لشيء.»

فسألها وهو يجثم بقربها: «ألا يسرك أني بتُّ ثرياً ولن تضطري لإصلاح سيارتي بعد اليوم؟» ثم ربت على رفراف سيارتها وأضاف: «هذه العجوز أصبحت في آخر أيامها. يجب أن تفكري جدياً بإحالتها إلى التقاعد.»

فردّت بسخط: «لن أفعل ذلك أبداً! لقد زوّدتها بقطع غيار جديدة، واليوم سأبدّل حزام المروحة، فتخرخر مثل الهرة. هل لك أن تناولني مفك الفيليبس؟ ستعرفه من النجمة الصغيرة المنقوشة في طرفه.»

فعلّق بجفاف. «أنا أعرف شكل مفك الفيليبس يا كلير.»

«آسفة. قلتُ ذلك لاعتيادي عل مساعدة كاتي.»

بدأت تفك البراغي لتتمكن من نزع حزام المروحة بعد خلوّ المحرك من الزيت. ثم استعصى عليها أحد البراغي ولمّا زادت قوة الضغط انزلق المفك فانكشط جلد يدها ونزف قليلاً. «اللعنة عليك!»

فانحنى ديڤيد لينظر تحت السيارة وسألها للمرة الثانية: «هل أنت بخير؟ لا أفهم بتاتاً لماذا تحبين هذه التصليحات المؤذية!»

فردّت باقتضاب: «أنا بخير. ولكن رأس هذا البرغي المهشم استعصى على المفك.» ثم زحفت خارجة من تحت المحرك ومسحت يدها النازفة بخرقة وكان وجهها يعكس سخطها.

فأعلن ديڤيد بوقار: «أنت تحتاجين سيارة جديدة.»

«هاه! سيارة جديدة! إسمع، ربما نجحت في حملي على شراء تلفاز جديد، إنما لا تحاول إصلاحي دفعة واحدة!»

«أنا جاد في كلامي.»

«وأنا أيضاً! لا أقدر مادياً أن أبتاع سيارة جديدة.»

«لماذا؟»

«لماذا؟» كرّرت بذهول. وكأنها لا تصدّق بأنه عاجز عن رؤية واقع واضح. «بسبب الكمبيالة!»

«أية كمبيالة؟» كان يعبس ويرمقها بنظرة غريبة.

«أية كمبيالة؟» رددت كالببغاء وقد خلا وجهها من أي تعبير.

«لقد قلتِ «بسبب الكمبيالة»، فهل لديك كمبيالة مستحقة؟ لا أستطيع أن أتصورك تستدينين مالاً.»

«لا. بالطبع لا أفعل ذلك. لا أدري بماذا كنتُ أفكر... لماذا نطقت ذلك.»

ولكنها عرفت السبب وصدمتها مقولتها... الكمبيالة: كانت تشكل كلمة هامة في ذهنها الطفولي، كلما سمعت أمها وأباها يتحدثان بقلق عن الكمبيالة وكأنما لها حياة خاصة بها... لقد نسيت أمرها منذ سنين طويلة... ثم اختطفت مفك البراغي واختفت ثانية تحت السيارة لتخفي وجهها الشاحب عن نظرات ديڤيد الفضولية.

كانت تكره تلك الكمبيالة لأن العديد من طلباتها الطفولية كانت تُرفض بالكلمات اللطيفة التالية: «لا يا حبيبتي فالكمبيالة ستستحق هذا الشهر.» لم تكن لديها أية فكرة عن ماهية الكمبيالة ولكنها عاهدت نفسها آنذاك على الأنتقتني أبداً مثل تلك الكمبيالة الرهيبة التي حرمتها من الحصول على الألعاب التي حصلت عليها صديقاتها... وبعد سنين عدّة اتضح لها أن تلك الكمبيالة المخيفة كانت مجرد رهن عقاري ثان وضعه أبواها على بيتهم العائلي ليسدّدا تكاليف معالجة جدتها التي كانت تعاني مرضاً مزمناً عضالاً... صحيح أن تسديد تلك السندات لم يستغرق أكثر من خمس سنوات ولكنها بدت دهراً بالنسبة لطفلة، واتخذت تلك الكمبيالة مكاناً دائماً في لا وعيها، بل مكاناً مهماً لأن تلك الذكرى ما تزال تطل برأسها القبيح بين وقت وآخر. إن طبيباً نفسانياً سيجد متعة كبيرة في حلّ هذه العقدة، وسوف يقول على الأرجح إن هوسها الماديّ ليس مردّه افتقارها الحالي للمال بل لأن أبويها كانا يفتقدانه وهي طفلة. سوف يقول...

وخرق تأملاتها صوت ديڤيد قائلاً بجفاف: «كلير، وحتى

أنا الجاهل أصول الميكانيك يعرف بأن عليك أن تستعملي سقّاطة لفك ذلك المسمار.»

أدارت رأسها فإذا بوجهه يقابل وجهها تحت السيارة، وكان يحمل السُقّاطة.

«صحيح. شكراً.» تناولت منه السقاطة وأردفت: «أظن بأني سأكتفي بتغيير الزيت واؤجل تبديل الأحزمة لوقت آخر... لدي مهمة يجب قضاؤها قبل أن تعود كاتي من المدرسة.»

«بوسعك أن تأخذي سيارتي إن شئت.»

«كلا، لا بأس.»

سارعت إلى تثبيت مصفاة الزيت الجديدة ثم خرجت من تحت السيارة وأخذت تسكب الزيت في العلبة المرافقة. راقب ديڤيد حركاتها السريعة البارعة من دون تعليق. والتزم الصمت حين نزعت ثوب الشغل ومسحت يديها بخرقة وصعدت إلى السيارة وأدرات المحرك. وحين تأكدت من عدم تسرب الزيت صفقت باب السيارة، وقالت وهي ترجع بها إلى الوراء: «إلى اللقاء. وشكراً لمساعدتك.»

فابتسم وقال منادياً: «لو كنت مكانك لفكرت في غسل وجهي.»

فنظرت في المرآة الصغيرة وداست فوراً على الكابح، وحدّقت في لطخة الشحم على جبهتها حيث فركت مكان الرضّة بأصابعها.

يا للإزعاج! أوقفت المحرك وركضت إلى الشقة. وحين عادت إلى السيارة بعدما غسلت وجهها ومشطت شعرها كان ديڤيد قد توارى. وكان النقر على الكمبيوتر يملأ الجوّ من جديد.

الفصل الثامن

قطعت كلير المسافة إلى بيت أبويها بسرعة نسبية، فاليوم الجمعة وحركة السير تكون خفيفة عند الظهر. كانت تقود بالفعل اللاإرادي، تتوقف أمام الإشارات الحمر وتمر بمعالم مألوفة من دون أن تلاحظها. وكان ذهنها منشغلاً بالتقاط كل ما تتذكره عن الكمبيالة المخيفة، وتحاول التفكير فيها بتعقل ومن وجهة نظر إنسانة ناضجة كي ترغمها على اتخاذ منظورها الصحيح في لا وعيها. كانت ترفض أن تكون لهذه الذكرى القديمة كل هذه السلطة عليها. أن تظل سيفاً مسلطاً عليها كلما أخرجت دفتر شيكاتها.

لم تدر في الواقع سبب إندفاعها المفاجىء لزيارة والديها ومنزل طفولتها، ولكن قد تساعدها بيئة البيت المحبوبة على طرد هذا الشبح الذي لاحقها طويلاً من دون أن تدري.

الديار لا تتغير... تبقى دائماً على حالها... فكرت كلير بهناء حين أوقفت سيارتها في مرآب المنزل الأبيض القديم. دفعت الباب الأمامي وولجت الردهة منادية:

«صباح الخير. هذا أنا كلير.»

«أنا هنا، أدخلي.» جاءها صوت والدها من غرفة الجلوس حيث وجدته يقرأ الجريدة الصباحية وهو شبه مستلق على مقعده القديم المفضّل.

«أين أمي؟» طبعت قبلة على رأسه الأصلع وجلست على الأرض قرب قدميه. وأجابها: «أمك تستحم. استيقظت باكراً

واشتغلت في الحديقة. تعرفين كم هي مولعة بنكش التراب في الربيع.»

وهنا، هبطت أمها الدرج، وكانت تلف جسمها بروب زهري قديم وتجفف شعرها بمنشفة: «أهلاً يا حبيبتي، خيّل إليّ إني سمعت صوتك. ما الذي أتى بك في يوم شغل؟»

«أظنني مصابة بحمى ربيعية أفقدتني القدرة على التركيز.»

«إنه بالفعل طقس رائع. لقد زرعت خساً وفجلاً و...»

«ولكنك تكرهين الفجل، وأبي كذلك.»

«أعرف، ولكني لن أتمكن من زرع البندورة في الوقت الحاضر وكان عليّ أن أغرس شيئاً! فما عدنا قادرين على شراء الخضار من البقالين.»

فتبادلت كلير ووالدها ابتسامتين عريضتين ثم تحولت ابتسامتها إلى عبوس عندما رأت أمها تشد حزام الروب. فسألتها: «لماذا ما زلت تستعملين هذا الشيء الكالح البالي؟ لقد أهديتك روباً جديداً في عيد الميلاد.»

«أعرف ذلك، وهو جميل جداً... ولكنني أحتفظ به للمناسبات، فقد اضطر يوماً لدخول المستشفى، من يدري؟»

«ولكنك فعلت الشيء نفسه بالروب الأول الذي أهديتك إياه العام الماضي! كان من المفروض أن تلبسي الروب الثاني!»

ولكن إذا ارتديته فسوف يعتق ويصبح مثل هذا الذي ألبسه.» كان صوتها منطقيّ النبرات وكأنها تشرح الأمر لطفلة مزعجة.

فهمّت كلير بالاعتراض لكنها أسكتتها بحركة من يدها وقالت: «هذا الروب مناسب ومريح، ويروقني أن أعلم بأن الآخرين محفوظان لحين الحاجة.»

فعادت كلير تبادل أباها النظرات، وأدرك كلاهما أن لا

جدوى من متابعة النقاش... ولكن كلير قررت أن تدخل غرفة أمها في يوم ما وتخطف هذا الروب البالي وتحوّله إلى خرق لمسح الشحم!

كانت أمها قد وقفت أمام مرآة جانبية وراحت تمرر أصابعها في شعرها القصير بقصد تجفيفه. وقالت وهي تدرس صورتها: «لا أدري إن كنتُ أستطيع إقناع خالتك روث بأن تأتي وتجعّد لي شعري.»

«أمي! تعلمين أن تلك المواد الكيميائية تسبب لها حساسية جلدية.»

«أعرف.» ثم نظرت إلى ابنتها عبر المرآة وتابعت: و «أنت؟ هل لك أن تقومي بذلك؟»

«كلا! لماذا لا تذهبين إلى صالون تزيين مثلما تفعل سائر النساء؟»

«وأدفع خمسين دولاراً لعملية مؤقتة؟ فشعري سيطول وسأقصه بعد شهر! لن أفعل ذلك وحق السماء!»

ثم استدارت لتنظر إلى ابنتها جيداً وعلّقت: «تبدين شاحبة يا حبيبتي، هل أنت بخير؟»

«أجل. مجرد صداع بسيط، فقد ارتطم رأسي بمحور العجلتين عندما كنت أغير زيت السيارة.»

ثمة سواد بسيط حول عينيك مثلما كان يحصل لك وأنت طفلة عندما تصابين ببداية حُمّى.» وتقدمت من ابنتها ويدها ممدودة في بادرة أمومية لتجسّ جبينها بكفها. ولكن كلير زاغت منها في اللحظة المناسبة وقالت: «لست محمومة!»

«حسنا حسنا، كل ما في الأمر أني أقلق عليك كونك تعملين بكدح وترهقين نفسك. ويعلم الله أن المرء لا يمكنه أن يمرض

هذه الأيام وسط ارتفاع كلفة الطبابة والدواء... واضطرارنا لدفع أقساط التأمين! لن تصدقي يا حبيبتي أن...»

ولكن كلير توقفت عن الإصغاء وعادت بذاكرتها إلى حوارات ماضية:

«بلوزتك جميلة يا أمي.»

«أليست كذلك؟ ابتعتها في قسم التنزيلات بثمانية دولارات فقط!»

«دجاج للمرة الثانية يا أمي؟»

«لقد انخفض سعره هذا الأسبوع وارتفع سعر اللحم إلى السقف. أظن أنهم يريدوننا أن نصبح نباتيين!»

«حاولت مراراً أن أخابرك يا أمي ولكن الخط كان مشغولاً.»

«لقد سعينا للحصول على خط خاص ولكنهم طلبوا أجراً فاحشاً!»

مثال خلف مثال، دارت في ذهن كلير مثل اسطوانة عالقة. لماذا لم تلاحظ أبداً من قبل كيف تحصر أمها كل شيء في نطاق المستوى المعيشي والتكلفة المعيشية؟ إنها تشرف على حسابات والديها ولذلك تعرف بأنهما آمنان مادياً - ليسا من الأثرياء ولكنهما سيعيشان براحة طوال حياتيهما. ومع ذلك ما تنفك أمها تقلق باستمرار على التكاليف. يا إلهي! أي مقدار أكبر من المال ستحتاج حتى تشعر بالأمان؟

وفجأة توقفت أفكار كلير عند السؤال التالي: أي مقدار أكبر من المال ستحتاج هي نفسها لكي تشعر بالأمان؟ لتشعر بأنها

قادرة مادياً على شراء تلفاز جديد وسيارة جديدة؟ هل هذا إرث عائلي انتقل من الأم إلى الإبنة؟ هل تقلق هي مادياً تمشياً مع قلق أمها؟ وهل ستتبع كاتي هذا التقليد العائلي؟

وأعادها صوت أمها إلى الواقع: «كلير، أنت شاحبة فعلاً. هل كانت ضربة رأسك قوية؟»

«لا، مجرد نقرة.» ثم وقفت وأردفت: «من الخير أن أمضي في طريقي. أردت فقط أن أراكما وأرتاح قليلاً من العمل. وقد قرب موعد عودة كاتي من المدرسة.»

وفي طريق العودة حاولت أن تنظر إلى نفسها بموضوعية. هل هي حقاً مثل أمها؟ لا، لا، إنها ليست على تلك الدرجة من الحرص... إنها لا تلبس الروب نفسه سنة، بعد سنة في حين أن لديها اثنين جديدين محفوظين على رف الخزانة في علبتيهما. أما هي فلا يمكن أبداً...

أوقفت السيارة في المرآب وحدقت طويلاً في لا شيء. ثم ترجلت من السيارة كالمسعورة وركضت إلى الشقة، ثم إلى مخدعها وأخذت تفتش في أحد الأدراج حتى عثرت على بغيتها: كنزة من الكشمير سكرية اللون ناعمة الملمس.

جاءت بمقص الأظافر وبترت البطاقة البيانية التي كانت ما تزال معلقة بالكنزة بواسطة خيطين من البلاستيك. ثم نزعت قميصها القطني وارتدت الكنزة للمرة الأولى منذ أن تلقتها كهدية من ديفيد قبل خمس سنوات.

وهنا سمعت كاتي تفتح باب البيت فنادت: «لا تخلعي معطفك.» ثم لاقت ابنتها عند الباب، مرتدية بنطال جينز وحذاء كرة مضرب وكنزة أنيقة، وقادتها إلى الخارج فسألت الطفلة وهي تحملق في أمها باستغراب:

«أين سنذهب؟»

فردّت الأم بوجوم: «لا أدري بعد، ولكننا سنمضي لنصرف بعض المال.»

لمّا خابرها لورنس في الثالثة، لم تضطر لاختلاق عذر يحول دون خروجها معه تلك الليلة. فقد كان صداعها قد اشتد وقتئذٍ، وأعلمته بذلك وأضافت بأنها تعتزم قضاء سهرة هادئة في بيتها تقرأ كتاباً بعدما تأخذ حبة أسبرين.

وقد أجابها بغضب: «أرجو ألا يكون الصداع بداية مرض ما. أرجح بأنك التقطتِ ميكروباً عندما حضرت مسرحية كاتي وانحشرت بين كل هؤلاء الأطفال.»

فأكدت له بأنها ستتحسن في الصباح بعد نوم طويل ومريح ثم أقفلت الخط وهي تشعر بارتياح شديد لم ترغب في معرفة سببه.

صرفت الأمسية في ملاعبة كاتي وإنجاز بعض الأعمال المنزلية وهي تشعر بتوعك، وبأنها أنيقة أكثر من اللزوم كلما وقع بصرها على الكنزة الكشميرية وعلى أظافرها المتألقة بطلاء اسمه «وعد الشغف الزهري.» أجل، لقد ذهبت مع كاتي بعد الظهر إلى صالون تزيين حيث سرحتا شعرهما وجمّلت هي أظافر يديها - وقدميها، وهذا أمر لم تفعله أبداً من قبل إذ كانت تعتبره مضيعة منحطة للمال.

وها هي الآن تدور في أرجاء الشقة حافية القدمين وأظافر قدميها تومض كالدرر على السجادة، وتتمنى أن يخف ألم جسمها وأن يمر ديفيد عليها... ولما وقفت تغسل أطباق العشاء فكرت بكآبة: ها أنذا في كامل أناقتي ولن أذهب إلى أي

مكان، وليس معي سوى طفلة صغيرة لتعجب بشعري المسرَّح، و«بطلاء الشغف» الذي بدأ يتشقق منذ الآن... ثم تنهدت وابتلعت قبل حبتيَ أسبرين وأوت إلى فراشها.

لم تنم جيداً كما توقعت، فالأسبرين لم يخفف من صداعها، وفي وقت ما من الليل بدأ حلقها يحرقها. كان لورنس محقاً في قوله بأنها قد التقطت ميكروباً في ليلة المسرحية.

جلست مع كاتي على الأرض بقرب النافذة وأمامهما رقعة داما. حمدت الله على أن كاتي ما تزال بخير أما هي فكان صداعها مؤلماً يُصعب عليها التركيز ولذا أوشكت أن تسمح لكاتي بمشاهدة التلفاز.

وفجأة هتفت كاتي بصوت عالٍ أجفلها: «هيا! توّجيني ملكاً!»

«اخفضي صوتك.» نظرت إلى رقعة الداما فتأكد لها أن حجارة كاتي استطاعت أن تقطع المربعات السوداء والحمراء، وعلى هذا لن تضطر هي إلى التظاهر بالهزيمة. امتثلت للأمر الواقع ووضعت حجراً أسود فوق حجر كاتي الغازي وقالت: «ها قد توّجتك ملكا. لكنني متعبة يا صغيرتي، ما رأيك في أن تتسلي بالتلفاز وأتسلى أنا بالمطالعة؟»

فهتفت كاتي مبتهجة وركضت إلى الجهاز، في حين رفعت كلير جسمها بتثاقل واستقرت على المقعد المجاور للنافذة ثم تناولت كتابها من على المنضدة، وزمّت عينيها لتتمكن من القراءة لكن النور الصباحي القويّ انعكس على بياض الصفحة وأدمع مقلتيها. فقالت لابنتها: «هل لك أن تسدلي الستائر عنّي؟» إلا أن كاتي كانت مستغرقة في مشاهدة إعلان عن

الحبوب المغلفة بالسكّر. فاضطرت كلير للسير بمشقة إلى النافذة. مشت محنية الظهر وكأنها بذلك تدرأ عنها هجمات الألم. أخذت تبحث عن الحبل المخفي بين طيّات الستائر وإذا بها تفاجأ بحركة أمامها جعلتها تطلق صرخة رقيقة.

«يا إلهي! لقد أرعبتني!» شهقت وانحنت إلى الأمام لتنظر عبر شريط النافذة المفتوحة. فإذا بديفيد يقف محشوراً بين أوراق الشجر، ورأسه في مستوى خصرها وكان يحمل سلّماً من الألمنيوم.

«هل صارت عادة لديك أن تتسلل على هذا النحو وتفزعني؟» ووضعت يدها على جبينها حيث الكدمة وكان لونها قد صار قرمزياً مع اخضرار، وكل ذلك نتيجة لهجومه المتسلل يوم أمس.

«أنا لم أتسلل، كل ما في الأمر أنك صرت متوترة في المدة الأخيرة.» وللدلالة على كلامه ألقى السلّم بقوة على حائط البيت محدثاً صوتاً كاشطاً رهيباً أحدث أهوالاً في أعصاب رأسها. ثم تطلع إليها وقال: «أوه، تسريحة شعرك جميلة، إنها تروقني.»

«شكراً.» سرّها أنه لاحظ الغُرّة الجديدة، وكانت صاحبة الصالون قد أكّدت لها بأن الغرّة ستنقص خمس سنوات من عمرها وستخفي الكدمة. وتابعت تقول: «سرحته أمس، كذلك قلّمت أظافري.» وأنزلت يديها إلى أسفل الشباك ليرى أظافرها.

لكنه لم يَبْدُ متأثراً، بل مرتاباً ومستنكراً، إذ قال: «هل تزينت من أجل سهرتك الأسبوعية مع لورنس؟»

«كلا، أنا لم أخرج مع لورنس ليلة أمس... كنت مريضة...

أنا الآن مريضة. أظن أني أصبت بالرشح.»

«ثمة سواد خفيف حول عينيك. دائماً يحصل هذا معك كلما أصبت بحمّى.»

«أعرف. أعرف. كنتُ اليوم عند أمي.» ثم ألصقت أنفها بشريط النافذة وحاولت أن تنظر إلى المواد التي كوّمها عند قدميه: «ماذا تفعل؟» وبدت لها العلب شبيهة بالعلب الموجودة في المرآب... تلك الأنابيب القديمة... «سوف...» فقاطعها بإيماء واثقة: «أجل،» سوف أمعجن نوافذك.»

«لا شك أنك تمزح!» قفزت هذه الكلمات إلى شفتيها لكنها ردتها إلى حلقها، وراقبته بصمت حين أدخل أنبوب المعجون في المُلقم المعدني الذي يحمله بيده. وهنا، أرادت أن تنبهه، ولكنها منعت نفسها بالقوة، إلا أنه سرعان ما اكتشف غلطته بنفسه، فأزاح الأنبوب بهدوء تام والتقط سكيناً صغيرة وشطر سداده الأنبوب البلاستيكية. ثم أدخل الأنبوب مجدداً في المُلقم، وارتقى درجتين من السلّم ووضع فتحة الملقم على حافة النافذة وبدأ يعصر مقبضه. ثم بدا عليه القلق، فأدركت كلير السبب وقالت له ناصحة: «إذا قصصت غطاء الأنبوب على شكل زاوية سيسهل عليك ضبط المعجون وتحصل بالتالي على كساءٍ متساوٍ ورقيق.»

فرشقها بنظرة جعلتها تهز كتفيها وتبتسم بفخر، وبعدما أعاد قص الفتحة وتابع العمل راقبته كلير بضع دقائق وكان المعجون، هذه المرة، يمتد بنعومة وتساوٍ على حافة النافذة. وعلّقت وهي تزم عينيها في نور الشمس: «لا موجب لأن تفعل هذا. أقصد أن البيت ليس بيتك وما عاد مطلوباً منك أن تقوم بإصلاح كهذا.»

فأجاب من دون أن يلتفت إليها: «أجل، إنه ليس بيتي ولكني أفعل هذا حمايةً لإبنتي التي تجلس أمام شباك عتيق يُدخل التيارات الهوائية. ثم من يدريني بأنك لم تصابي بالرشح إلا بسبب هواء بارد تسرب من هذه النافذة؟» ثم توقف قليلاً ليراقب نتيجة عمله اليدوي وبدا راضياً عنه. ثم أردف: «كنت أنوي القيام بذلك منذ... لا أدري منذ متى.»

«منذ سنوات.»

«أجل، منذ سنوات ولذا صممت على أن أنجزه قبل سفري.»

«سفرك؟» خرج صوتها أبح ووضعت اللوم في ذلك على حلقها العليل.

فأومأ برأسه، وحمل السلّم عبر الشجيرات الكثيفة إلى الجانب الآخر للنافذة. وقال موضحاً: خابرني بارني ليلة أمس وقال إنه رتّب لي جولة دعائية لروايتي ستشمل أربع مدن. سأغادر الأربعاء إلى نيويورك ومن ثم إلى بوسطن وفيلادلفيا وواشنطن. وستكون هناك حفلات توقيع واستقبال وما إلى ذلك.» كان يحاول ألاّ يبدو مكترثاً إلا أنه عجز عن إخفاء بسمة السرور والفخر التي ثنت شفتيه.

«أهنئك يا ديڤيد! أعرف حبك لهذه الأمور. سوف تستمتع كثيراً.» كان يبدو منتفخاً بالغرور إلى حدّ كرهت معه أن تفجر بالونه. ولكن...

«ديڤيد؟»

«نعم؟» ثم نظر إلى حيث تشير وهتف: «اللعنة! اللعنة!» كان مُلَقّم المعجون الذي وضعه مؤقتاً على رأس شجيرة، ينز محتوياته على مهل «مزينا» الشجر الأخضر بحبال رفيعة بيضاء. إذ نسي ديڤيد أن يطبق قاعدته ليخفف الضغط.

«اضغط على القاعدة! اضغط!»

لم تقدر أن تقاوم الضحك والقهقهة عندما أختطف المُلثّم وأخذ يعالجه بتعثر لعدم درايته به. ثم حرّك ضحكها سعالاً فراحت تضحك وتسعل في آن، الأمر الذي زاد من صداعها.

كان المعجون اللزج يغطي يديه ويتقطر على بنطاله. حاول أن يبدو حانقاً ولكن عينيه تألقتا بضحك مكتوم. وقال «لها» بخشونة: «لماذا لا تأوين إلى فراشك، أنسيت بأنك مريضة؟»

استلقت لاحقاً في سريرها، فيما جلست كاتي على طرفه تلوّن صوراً، وأصغت إلى تحركات ديڤيد خارج البيت. راقها أن تسمع صوت السلّم وصوت خطاه ودندنته... لقد قدّرت مساعدته هذه، ولا سيّما أنه لا يحسن القيام بهذا النوع من الأعمال الإصلاحية... كذلك خاف عليهما من الإصابة بالبرد وهذا دلالة على اهتمامه الفائق بمشاعرهما... كم هو مريح وجود رجل في البيت... وعلى الرغم من ألم جسمها ورأسها وحلقها شعرت بتحسن فعليّ بسيط لمجرد أنه موجود الآن بقربها.

أيقظها جرس الباب، فناضلت لتطرد ضباب النوم، وشعرت بأنها أسوأ بكثير مما كانت عليه عندما استلقت مع كاتي كي تناما لفترة، بعد طعام الغداء. نظرت إلى الساعة فإذا بها الثانية والنصف. لقد نامت ساعة فقط وهذا الوقت القصير لا يبرر سبب شعورها بالتخدر والثقل في أطرافها وصعوبة السير نحو الباب. إنها تعاني رشحاً رهيباً، وشعرت للحظة بالشفقة على نفسها.

ولما رأت لورنس يقف بقلق على العتبة ازدادت هذه الشفقة عشرة أضعاف.

وهتف لورنس بانصدام: «كلير! تبدين رهيبة!»

«لقد أيقظتني من نومي.»

سارت إلى المطبخ بتعثر واختطفت منديلاً من الورق تمخطت به. وأردفت: «أعلمتك بأني مريضة.»

«أجل يا حبيبتي، ولكني لم أتصور بأنك مريضة إلى هذا الحد. «يجب أن تلزمي فراشك.»

«كنت ألزم فراشي وأنت أيقظتني.»

«آسف، ما كان يجب أن آتي، ولكنني قلقت عليك. فقد كنتِ في المدة الأخيرة.. مختلفة كثيراً.. وباردة، حتى أنك ألغيت سهرتين متتاليتين... فحسبت...»

«حسبت أنني أتظاهر بالمرض؟»

شعر لورنس بالذنب فاحمر وجهه. إلا أنها رأت أنه قلق عليها بالفعل فسامحته بقولها: «لا بأس. قد أكون بحاجة إلى رفقة تحول دون تفكيري بحالتي التعيسة.»

«لنذهب إذن ونجلس على الأريكة لتستريحي.»

بدأ يقودها إلى غرفة الجلوس ثم أمسك بمرفقها مؤاسياً وسأل: «هل أجهز لك شراباً ساخناً؟ شاياً مع العسل والحامض؟»

فردت بامتنان وترحيب ببعض التدلل: «سيكون ذلك رائعاً. ليس لديّ حامض ولكنك ستجد العسل في الخزانة المجاورة للمجلى، وأكياس الشاي في علبة القهوة.»

«حسناً. اذهبي أنت واجلسي وسأجهز لك شاياً منعشاً.»

قدّرت لطفه وعطفه عندما استلقت على الأريكة وغطّت قدميها الحافيتين بحضن روبها. ولكن لماذا هي متضايقة كثيراً من سماع خبط أبواب الخزائن وهو يفتح باباً إثر باب

بحثاً عن الفناجين والأطباق والملاعق؟ ديڤيد يعرف بالضبط مكان كل غرض... أطبقت أسنانها غيظاً ومنعت نفسها بالقوة من إقتحام المطبخ لتجهز الشاي بنفسها... وأخيراً دخل لورنس بزهو، حاملاً فنجان الشاي وكأنه يقدّم هدية للآلهة. ثم وضعه بارتجاج على الطاولة فانسكب بعض الشاي على الطبق.

«تفضلي.» وتنهد بارتياح فأدركت كم كان هذا العمل ثقيلاً بالنسبة إليه. ثم جلس بقربها بعدما شد طرفي بنطاله كالعادة: «ما عليك الآن إلا أن تسترخي. وفي الواقع هذه فرصة لنا، لنتحدث حول نقاشنا القصير الماضي.»

فتأوهت بصمت: «لا! ليس الآن: ليس وأنا مريضة إلى هذا الحد!»

«هل سنحت لك الفرصة لتفكري بالموضوع؟» أمسك بيدها وكانت عيناه تناشدانها القبول. وتابع: «لقد وعدتك بأن لا أستعجلك ولكن أسابيع عدّة مرت على حديثنا الأول من دون أن نناقشه في خلالها. فهل لنا أن نتكلم الآن؟»

كان في منتهى الجدية. وفكرت كلير بتعاسة، إنه رجل طيّب بالفعل مثلما كان دائماً. ليس ذنبه أن الطريقة التي شدّ بها بنطاله أغاظتها الآن، فقد فعل ذلك منذ اليوم الأول للقائهما ولم تنزعج آنذاك...

وغمغمت تقول: «كانت المدة الأخيرة مفعمة بالعمل المتلاحق المحموم...» لم تشأ أن ترفع بصرها إلى عينيه، فالذنب ليس ذنبه فهي التي تغيّرت لا هو.

فربت على يدها وقال بتعاطف: «كانت صعبة حتماً. وقد يكون اليوم غير مناسب أيضاً لهذا الحديث ولكن...»

وأدخل يده في جيب سترته وسحب منها علبة مجوهرات صغيرة.

«أوه: لا!»

فتح الغطاء وقرّب العلبة منها ولكنها لم تتناولها منه بل حدّقت طويلاً في خاتم الخطوبة المُصاغ من لؤلؤة كبيرة محاطة بدائرة من الألماس الوهّاج. استمر لورنس يحمل العلبة على كفّه منتظراً بهدوء قرارها بقبول عرضه.

وأخيراً رفعت عينيها المعذبتين لتنظر إليه، واختنق حلقها من الدموع الحبيسة ومن المرض.

فأغلق العلبة وأعادها إلى جيبه وقال: «إني أتفهم الوضع. كنت آمل أن تكوني قد نسيته أخيراً، ففي فترة من الفترات بدوت مستعدة لقبول عرضي.»

«مستعدة؟» رددت بوهن لعدم رغبتها في أن تفهم قصده.

فقال مبتسماً بحزن ولطف: «لا بأس. أعرف بأنك ما زلت تحبين ديڤيد.»

فأرادت أن تنكر بقوة ولكنها عجزت عن نطق الكلمات. لم تقدر أن تكذبه على هذا الرجل الذي فهمها جيداً والذي واجه بمنتهى الصبر والعطف حقيقة مؤلمة بالنسبة إليه مبتغياً مصلحتها وسعادتها.

ومضى يقول: «ولكني أريدك أن تعلمي بأني ما زلت راغباً في الزواج منك، فأمر ديڤيد لا يهمني. أنا أحبك وأحب كاتي وأظن بأننا نقدر أن نسعد مع بعضنا. أنا أعرف كيف تشعرين الآن، بعد وفاة زوجتي خيّل إليّ بأنني لن أتمكن أبداً من نسيانها، ولكن المرء يتعلّم أن يحب من جديد. وأنا أريد أن أكون في الإنتظار حين تصبحين على استعداد للإقتران بي.»

فسالت دموعها الحبيسة على خدّيها... كيف يستطيع قلبها الغادر أن يستمر في حب ديڤيد بعد كل ما جرى وبعد طلاق سنتين؟ في حين أن لورنس عطوف وناجح و... طيّب الخلق... ولا تحبه.

وقالت: «أنا آسفة. لا أستطيع أن أقبل.»

«بوسعي أن أنتظر فأنا رجل صبور.»

ولكنها هزت رأسها وابتلعت غصتها وأجابت: «لا أظن أن الزمن كفيل بحل المشكلة. وفي الواقع يرتئي ديڤيد أن نعود إلى بعضنا البعض. أن نعطي نفسينا فرصة جديدة.»

«لن تنجحا في ذلك يا كليو! لا أحد ينجح أبداً!» كان صوته تعيساً إنما غير ناقد. وكان مجروحاً ولكن لم يكن راغباً في إيذائها بالمقابل.

«لورنس، لقد تغير ديڤيد! لا، أنا تغيّرت! كان عليّ أن أعيد النظر في بعض مواقفي الماضية ومفاهيمي السابقة... إننا شخصان مختلفان الآن، وأظن أن لدينا فرصة هذه المرة.»

كان مهما بالنسبة إليها أن يفهم، أو ربما لتفهم هي.

وكون لورنس رجلاً مطبوعاً على النبل والشهامة فقد تمنى لهما كليهما الحظ السعيد والهناء، ووعد بعدم التخلي عنها أذا ما احتاجت إليه في يوم ما، ثم لثمها مودعاً وشيّع نفسه إلى الباب كيلا تضطر لترك مكانها الدافىء على الأريكة.

بعد ذهابه، لفّت ذراعيها حول ركبتيها المرفوعتين وألقت برأسها عليهما... إنها مريضة، ومغرمة بزوجها السابق.. ومجنونة...

سمعت الباب الأمامي يُفتح، ثم وقعَ خطوات خفيفة تقترب منها، فرفعت رأسها.

«مرحباً، ماذا كان ملك التجار يفعل هنا في يوم سبت؟ هل ضيّع مفكرة مواعيده؟ لا تقولي بأنه قام بفعلٍ عفوي للمرة الأولى في حياته!»

فقالت متأوهة: «انصرف يا ديڤيد.»

سواء تحبه أم لا تحبه فما عادت تطيق احتمالاً.

الفصل التاسع

«ماذا؟ أنصرف وأتركك بمفردك؟»

«أجل، فذلك يبدو شيئاً رائعاً.»

وبطبيعة الحال تجاهل ديڤيد اعتراضها وجلس بقربها قائلاً:

«أردت التأكد من احتياجاتك. هل تريدين حساءً؟ أسبرين؟ أداة لتزويد الرطوبة؟»

هزت رأسها ثلاث مرات. كانت تبغي شيئاً واحداً فقط: أن تنضم إلى كاتي في مخدعهما وتنام. كانت تحتاج هدوءاً وراحة ووقتاً لتفكر. كذلك لم يعجبها تفرس ديڤيد في وجهها فهي تعلم بأنها تبدو رهيبة!

وفكّر ديڤيد بتعاطف: إنها تبدو مريضة بالفعل ولكنه لاحظ شيئاً آخر. ولما تمعن أكثر بدت عيناها متوهجتين ومحمرتين كما لو أنها كانت تبكي. فسألها بارتياب: «هل قال لك لورنس شيئاً أثار انفعالك؟»

فهزت رأسها نافية، لكنه لاحظ كيف أشاحت بصرها بسرعة وركزته على قميصه.

فقال في نفسه... حسناً، لقد زارها سيّد المواعيد الدقيقة في يوم سبت، وكانت هي تبكي، ثم خرج العجوز وهو يبدو أكثر وجوماً من المعتاد... ضاقت عيناه الزرقاوان حين جمع هذه الأدلة بصمت، ولما حصل على النتيجة هتف بانتصار:

«لقد رفضت طلبه!»

فردّت باستعلاء: «لا شأن لك بذلك!»

ولكنه أخذ يهتف فرحاً ويصفع ساقيه: «هذا ما حصل، أليس كذلك؟ طلبتِ إليه أن يمضي في حال سبيله!»

«لا أجد ما يُضحك في جرح إنسان أعزه ويعزّني!»

فهدأ ديڤيد على الفور وقال: «الحق معك أنا آسف.» ولم يبد شديد الأسف. وتابع: «ولكني لا أستطيع أن أتظاهر بالأسى لأنك رفضته. إن الزواج من رجلين في وقت واحد أمر مخالف للقانون كما تعلمين، وزواجك من لورنس سيكون عقبة حتمية في علاقتنا يا كلير.»

فابتسمت بشحوب وتناولت الفنجان لتشرب بقية الشاي إلا أن حلقها آلمها وصعب عليها الإبتلاع. لوى الوجع قسمات وجهها فأخذت تبحث في جيب الروب عن منديل ورقيّ فناولها ديڤيد العلبة التي كانت على الطاولة وشكرته بصوت أجش وتمخطت بقوة.

فعبس ديڤيد وقال: «كم أكره أن أغادر المدينة وأنت مريضة إلى هذا الحد. لقد خابرني بارني قبل قليل وطلب مني التبكير في الجولة الدعائية، ولذا من المفروض أن أغادر يوم الإثنين.»

«لا تقلق. سأستدعي أمي إذا احتجت شيئاً.»

«وأنا سأطلب إلى نعومي أن ترعاك.»

«سأكون بخير. فأنا أحتاج فقط لنوم عميق مريح.»

قالت ذلك لتجعله يتحسس ضرورة انصرافه، ولكنه مضى يقول:

«في كل الأحوال، أفضل أن أنتظر حتى تتحسني. أفكر في أن أخابر بارني لأرى إذا كنا نستطيع تغيير المواعيد. لقد باتت

المخابرات الخارجية تكلفني كثيراً وقد يكون من الأوفر لي على المدى البعيد أن أنتقل إلى نيويورك.»

فخفق قلبها خوفاً وقالت متظاهرة بعدم الإكتراث: «كنتُ أتساءل قبل أيام إن كنت تفكر بالإنتقال إلى شقة فخمة بعدما صرت ثرياً ومشهوراً. فمدينتنا ليست عاصمة النشر مثل نيويورك.»

فأجابها بمرح: «قد لا تكون كذلك ولكنني لست مجنوناً لأرحل، فأنا حاصل هنا على أفضل ما في العالمين. أقصد أن لديّ زوجة وطفلة تعيشان تحت سقفي ولا تتطلبان مني ما يُطلب عادة من الزوج أو الوالد. فماذا يطلب الرجل أكثر؟»

فلم تصدّق ما سمعته أذناها... احتبس النفس في حلقها وطار بصرها إليه. كانت صدمتُهُ توازي صدمتها، وفي حين شحب وجهها شحوباً كاملاً بدأ محياه يصطبغ بحمرة قانية.

ران عليهما صمت محرج وهما يحدقان في بعضهما البعض وقد أدركا لتوهما كم كانت كلماته صحيحة - حتى لو كان يقصد بها المزاح.

ولكنها لم تكن مزحة بالنسبة إلى كلير التي بادرت إلى كسر الصمت وقالت بصوت مرير: «لقد جعلْنا الطلاق مناسبا تماماً بالنسبة إليك، أليس كذلك؟»

«كلير، لم يكن هذا ما رميت إليه! أنا...»

بيد أنها كانت مجروحة حتى قرارة نفسها. فديڤيد، من حيث لا يدري، قد لمس قرحة ما انفكت تتقيّح في قلبها طوال سنتين... قد تكون هي التي طردته خارج البيت تلك الليلة - ولكن كان هو الذي غادر وظل بعيداً! بالطبع، لقد غضبت غضباً لاهباً بسبب السيارة الجديدة، إنما لم يخطر لها إطلاقاً بأنه

سيعتصم فعلاً في الشقة العليا ويدع شجارهما يتحول إلى طلاق. وقالت له الآن:

«طالما تساءلت لماذا لم تنزل إلينا في الصباح التالي... لماذا لم تحاول منعي من مباشرة دعوى الطلاق؟»

«أمنعك؟ لقد ركضت إلى محاميك في التاسعة صباحاً، وعند الظهر كان انتهى من تجهيز الملف!»

فارادت أن تصرخ فيه: كان بوسعك. إذن، أن تنزل في الثامنة صباحاً! كان بوسعك أن تكافح بقوّة من أجلي... من أجلنا معاً! ولكنها لم تفعل لأنها أدركت الآن لماذا تركها تمضي في معاملات الطلاق. لقد قال بانه حاصل على أفضل ما في العالمين، وهذا صحيح بالنسبة إلى رجل أناني وغير ناضج على غراره.

كان وجهها يعكس إدانتها له، فهتف بالم وغضب: «لا تنظري إليّ هكذا! تعرفين جيداً بأني حاولت مراراً وتكراراً أن أتكلم معك ولكنك كنت تقفلين الباب في وجهي باستمرار وتتظاهرين بأنك مكتفية ذاتياً إلى حدّ عدم احتياجكما إليّ!»

فردّت بغضب مماثل: «ومتى كنت موجوداً كي تلبيّ احتياجاتنا؟»

«ومتى سمحت لي أنت بأن أكون موجوداً؟ كان ضرورياً لك أن تكوني المسيطرة لتشعري بالأمان. لقد خططت لكل لحظة من حياتنا ورسمتها بإتقان فلأي شيء كنت ستحتاجينني؟»

رفضت الإستماع إلى مزيد من هذه الترهات! نهضت من مكانها متثاقلة وتمنت لو يخف الدوار الذي انتابها كي تتمكن من مغادرة الغرفة بأنفة وازدراء يليقان بذلك الظرف. إلا أنها ترنحت فهبّ ديڤيد ومدّ يده ليقبض على ذراعها.

ولكنها ابتعدت قبل أن يلمسها، وحاولت تركيز بصرها بما يكفي لرشقه بنظرة جليدية... لا بد أنها كانت تهذي حين قالت للورنس بأنها تفكر بالعودة إلى هذا الرجل وبأنه تغيّر... قد تكون تحبه ولكن الحياة معه مستحيلة. لا شيء تغيّر بتاتاً!

«لا شيء، تغيّر، غمغمت بصوت مرتفع وهي تشد الروب على جسمها. ثم سألت بغضب وهي تغمض عينيها باتجاه مصباح المنضدة الذي كان يطعن بصرها كخنجر: «لِمَ النور باهر إلى هذا الحد؟» تقدمت خطوة، ويدها ممدودة لتحجب الضوء المزعج فارتطمت بديفيد الذي تلقفها بسرعة. ثم أطلق سباباً قلقا حين شعر بحرارة الحمّى العاصفة بجسدها. وضع كفّه على خدها وهتف: «يا إلهي إنك تحترقين بالحمى!» وسارع إلى رفعها بذراعيه القويتين ثم حملها وتوجه إلى غرفة نومها.

حاولت أن تأمره بإنزالها ولكنها عجزت عن تشكيل الكلمات وكان ذلك آخر ما وعته حتى الصباح التالي.

صداع، وأنف مزكوم، والنور اللعين ما يزال يؤذي عينيها المغمضتين تقريباً والآن بدأت الحكة في كل مكان من جلدها. رفعت يدها وحاولت الوصول إلى أسفل كتفها فإذا بيد أخرى تعتقل يدها وتُبعدها بحزم عن موضع الحكّة. جرّبت أن تفتح عينيها أكثر وأن تطلب من هذا الشخص أن يحرش لها ظهرها وإلا فقدت عقلها.

وسمعت ديفيد يجيبها: «لا تحكّي فالحرش سيزيد الوضع سوءاً وينتهي بندوب جلدية.»

ندوب! أيقظتها هذه المعلومة يقظة كاملة فجلست على فراشها ونظرت بهلع حولها لتعرف أين هي. ثم أزاحت الغطاء

ويا لهول ما رأت: بقع حمراء تغطي ذراعيها وساقيها!

«كلا! لقد أصبت بالجُديري في طفولتي أنا متأكدة من ذلك.»

«لا، أصبتِ آنذاك بالحصبة. هذا ما عرفته من أمك.»

«وكاتي؟»

«قد تصيبها الآن في أي وقت.» طمأنها بمرح وهو يُحكم وضع الأغطية عليها وحولها. فلم تقاوم وألقت برأسها على الوسادة وهي تشعر بخور في قواها. وسألته:

«مسرحية المدرسة كانت السبب، أليس كذلك؟»

«على الأرجح. أظن أن المكان الذي جلسنا فيه كان يعجّ بمكروب الجديري.»

«وهل أنت بخير؟»

«يبدو أني أُصبت بها وأنا طفل رضيع. لقد اتصلت بأمي أيضاً.»

فأغمضت عينيها لشعورها بثقل في جفونها. لم تصدق بأنها خائرة القوى إلى هذا الحد. ماذا ستفعل حينما تمرض كاتي أيضاً؟ ناضلت لتتكلم وهمست: «أمي...»

«ماذا قلت يا كلير؟»

«استدع أمي. ستعرف ماذا تفعل، ستعتني بي وبكاتي.»

فأكملته كلماتها وقال مؤاسياً: «لا تقلقي، اهتمي الآن براحتك. عودي إلى النوم.»

كانت في غاية التعب. حاولت أن تلعق شفتيها الجافتين ولكن فمها كان ناشفاً كالقطن ولسانها خشنا. ثم أحست بكوب يُضغط على شفتيها، وسمعت صوت ديفيد الآتي من مكان قصيّ يحثها على الشرب - فاستطاعت بجهد أن ترشف العصير وترطب فمها.

في ذلك اليوم سمعت صوته مراراً، آتياً من البعيد وصداه يتردد في نفق، وكان يحثها باستمرار على ابتلاع شيء ما - إما عصير أو حبوب دواء، في حين عافت نفسها كل شيء باستثناء النوم. حتى كاتي لم تستوعب وجودها عندما انضمت إليها مساءً في الفراش وشكت سوء حالها وكانت حرارتها قد بدأت في الإرتفاع. تحركت فيها غريزتها الأمومية القوية وحاولت أن تنشط ذهنها المتبلد من الحمّى كي تساعد طفلتها، ولكن صوت ديڤيد عاد إليها من جديد يهدئها ويحثها على الراحة ويؤكد لها بأن كل شيء على ما يرام... وبأن كاتي بخير... وهي بخير... وما عليها إلا أن تنام.

ونامت حتى الصباح التالي. وعلى الرغم من أنها كانت في نصف وعي إلا أن ساعة جسمها الداخلية استمرت في التكتكة فوعت الآن بأنها في مساء الأثنين وبأنها لزمت الفراش منذ عصر السبت. أجل، اليوم الأثنين وكان من المفروض أن يحصل شيء معينّ في هذا النهار... شيء...

لم تقدر أن تحمل أفكارها المشوشة على التيقظ فتركت هذه الخاطرة المقلقة تمضي في حال سبيلها.

كانت الأحداث تصل إليها بشكلٍ ما؛ صرير درّاجة بائع الصحف على الرصيف، سقوط الجريدة على عتبة بيتها، صوت المذياع المنبعث من المطبخ ترافقه رائحة الطهي... وشمت رائحة محددة: حصى البان الذي يستعمله ديڤيد في طهي اليخنة... لامس النسيم محيّاها فأدركت أن النافذة فُتحت لتهوية الغرفة بنسائم الربيع المنعشة.

ثم استعرضت وضعها الفيزيولوجي. رأسها؟ الحمد الله على أن الصداع بات محتملاً. حلقها؟ لا بأس به فهي تقدر الآن

أن تبلع بسهولة نسبية. ولكن هذه الحكة اللعينة التي تستيقظ معها وتنام معها، وها هي الآن تهيّج جلدها. وأخذت، رغماً عنها، تحك كتفيها على الفراش صعوداً ونزولاً علّها تجد بعض الراحة. وهنا لاحظت أن الكرسي الهزاز المجاور لسريرها قد توقف عن الصرير. الحمد الله، أمها هنا، بقربها. كانت، عندما تمرض في طفولتها، تجلس أمها على هذا الكرسي أثناء نومها.

«أمي؟» سألت بوهن ونعاس.

«أنا هنا يا كلير.» كان صوت ديڤيد «كُفّي عن هذا التلّوي فهو لن يفيدك بتاتاً.»

«ولكنه يستحك جلدي.» احتجت بوهن ونظرت إليه بعينيها المزمومتين فبدا لها وجهه مرهقاً. وأجابها: «أعرف ذلك. لديّ مستحضر سائل من المفترض أن يخفف الحكة.

هل أضع شيئاً منه على جلدك؟»

فردّت بنكد: «أريد أن أستحم وأنت تبدو رهيباً وبحاجة إلى نوم وحلاقة ذقن.»

همّت بإزاحة الغطاء والجلوس، بيد أن جسمها لم يطاوعها وعجزت عن رفع رأسها ويديها. وعادت تقول بنكد: «ما بك؟ ألا تساعدني على النهوض؟»

«كلا.» ابتسم لها، وحمد الله «في قلبه على انحسار حرارتها وزوال النظرة اللمّاعة من عينيها. كذلك انشرح صدره لأنه لن يضطر إلى استعمال القوة معها لإبقائها في الفراش فالظواهر تدل إلى أنها لن تستطيع مغادرة السرير في القريب العاجل.

«ديڤيد!»

فهز رأسه بحزم: «المسموح فقط هو الإغتسال في الفراش.» لم تكن قادرة على الجدال المتعب فقالت باستسلام: «حسناً. هل لك أن تطلب من أمي أن تأتي وتساعدني على الإغتسال؟»

«أمك ليست هُنا.»

«ليست هُنا؟»

«ولكنها مرت بعد الظهر وأعطتني السائل الزهري المخفف للحكة. هو مصنوع من البابونج.»

استغربت الأمر كونها سلّمت جدلاً بأن أمها ستحضر وتتولّى تمريضها وتمريض كاتي.

وقال ديڤيد: «سأجلب بعض الأغراض اللازمة وأساعدك على الإغتسال.»

«لا عليك سأنتظر وآخذ دوشاً في الصباح،لا تزعج نفسك.»

«لن أنزعج، ستشعرين بالإنتعاش وتنامين بارتياح.» ثم نهض عن الكرسي واتجه إلى الباب: «سأعود بسرعة، انتظريني حيث أنتِ.»

وفكرت بقرف: كيف لي أن أذهب إلى أي مكان ومجرّد الإستيقاظ أتعبني؟ وما لبثت أن غفت قبل رجوع ديڤيد ولم تصحُ إلا عندما أحست بمرور الإسفنجة الدافئة المبللة على ذراعها. ثم نُقلت الإسفنجة إلى ذراعها الأخرى، ويديها وعنقها ووجهها. وكانت هناك منشفة تجفف جلدها بسرعة كيلا تبرد. ثم شعرت بالأغطية تُزاح إلى أسفل السرير، وسمعت الإسفنجة تُعصر في الماء قبل أن تباشر غسل قدميها وساقيها وفتحت كلير عينيها وقالت: «لقد انتعشتُ بالفعل. بوسعك الآن أن تدهن السائل الملطف. أليس كذلك؟»

«بالتأكيد.»

استخلصت، تبعاً لشعورها، بأن غالبية البثور كانت في ظهرها، وقسماً آخر منها انتشر على ساقيها وذراعيها، كما تأكد لها شعورياً بأن هناك بثرة في وسط ذقنها إنما لم ترغب بتاتاً في استطلاع وجهها في المرآة.

ثم سألها ديڤيد وهو يضع يديه تحت إبطيها: «هل تقدرين أن تجلسي؟» فعلت ذلك ثم مدت يديها إلى الوراء وتمكنت بمساعدته من رفع ظهر قميص نومها حتى تكشف معظم ظهرها ليضع عليه الدواء. لاحظت كلير أن القميص الداخلي الذي تلبسه الآن هو غير القميص الذي كان عليها يوم السبت إلا أنها فضلّت ألا تسأل عمّن ألبسها إياه، وكيف.

تناول ديڤيد الزجاجة البلاستيكية من على المنضدة، وخضها بضع مرات ثم سكب بعضاً من السائل على قطعة قطن وأخذ يدهن ظهرها. وسرعان ما شعرت بالراحة والإنتعاش، واستطاعت أن تتصور وفرة البثور من المرات العديدة التي خضّ ديڤيد الزجاجة ولما انتهى من دهن ساقيها وذراعيها شكرته بحرارة لأن الحكة كانت قد خفّت كثيراً. ثم خالجتها الشفقة عليه، إنما لم تستغرب إرهاقه لأن تمريض شخصين ليس بالأمر السهل. وسألته: «كيف حال كاتي؟ إنها تكره التزام الفراش وأراهن على أن الحكة تدفع بها إلى الجنون.»

«إنها تتحسن بإطراد. هي الآن في المطبخ تتناول عشاءها.»

فهتفت باستنكار: «في المطبخ؟ هل استطاعت مغادرة الفراش؟»

اهدئي الآن ولا تبالغي في أمومتك. لقد كانت إصابتها

طفيفة وزالت حمّاها، والحكة لا تضايقها كثيراً لأنها أصيبت بأربع بثور فقط.»

«أربع.»

«عندما اتصلت بالطبيب قال إن الإصابة بالجديري قد تكون خفيفة عند الصغار ولكن إصابات الكبار هي التي تتعقد، وقد رجّح بأنك ستلازمين الفراش أسبوعين...»

«أسبوعين! لا يمكنني أن أستلقي...»

فقاطعها ضاحكاً: «أخبرته بأنك ستقولين هذا ولكنه أجاب بأن حالتك السيئة ستستمر بعض الوقت وبالتالي ستضطرين إلى ملازمة الفراش.»

فردّت بتذمر: «لا موجب لأن تبدو سعيداً بذلك.»

فأحكم الغطاء حول كتفيها وعنقها وسأل: «أتريدين الآن شيئاً آخر؟ أريد أن أغيّر شراشف كاتي أثناء وجودها في المطبخ ومن ثم أضع حمولة ملابس في الغسّالة الكهربائية.»

«مهلاً يا ديفيد! يجب ألا تضطلع بكل هذه الأعباء، أنا أكيدة بأن أمي تستطيع أن تأتي وتساعدنا. لا حاجة...»

فقاطعها بحزم: «عودي إلى النوم.»

خرج، وكان يهم بإغلاق الباب خلفه عندما هتفت: «انتظر! لا أشعر الآن بالنعاس، ما رأيك أن ترسل لي كاتي بعد ما تنتهي من الطعام كي أسلّيها لفترة تنام أنت خلالها؟»

«موافق!»

بعد دقائق دخلت كاتي مرتدية بيجامتها وهي تحمل صينية عليها طبق يخنة لأمها. تناولت كلير طعامها وبعد ذلك عرضت كاتي بفخر بقع الجديري الأربع التي أصيبت بها، وعاينت عشرات البقع التي أصابت أمها. ثم فَرَدَتْ على السرير

مجموعة الأحصنة التي تمتلكها، وساعدتها كلير في تمشيط شعور أعناقها وذيولها. ولما جرفهما النعاس أخيراً نامتا معاً وقد استلقى رأساهما على نفس الوسادة فيما تبعثرت الأحصنة الملوّنة عند أقدمهما.

كان الطبيب مُصيباً حين قال بأنها ستمضي أسبوعين في الفراش. لقد مضى الأسبوع الأول وهي ما تكاد تستطيع الآن أن تجلس ساعة أو اثنتين في اليوم الواحد. أما سائر الوقت فتصرفه في النوم، وأحياناً تقرأ وتفكر.

وفكرت ذات صباح بأن الفرصة الفضلى للتأمل هي عندما يضطجع المرء على سرير المرض ولا يجد الطاقة ليُنزل قدميه إلى الأرض، وقد حان الوقت لتفكر في مجريات الأمور، كيف أن الحياة تسير على خير ما يرام دونما حاجة إليها. ولقد صُدمت شرّ صدمة لما اكتشفت بأنه من الممكن الإستغناء عنها.

فمع نهاية الأسبوع صار بوسع كاتي أن تعود إلى المدرسة. وكل صباح كان ديفيد يطعمها ويلبسها ويشيّعها إلى الحافلة من دون أن تفتقد رعاية أمها المعتادة عليها. كذلك كان يطبخ الطعام ويغسل الألبسة وينظف البيت... أما زبائنها، فهم بدورهم، لم يصابوا بالإفلاس أثناء مرضها ولم يحتجوا ويتركوها ويستعينوا بمحاسبين آخرين. كانت هذه التجربة بالتأكيد عاملاً على إيقاظها وتلقينها درساً بالتواضع. إنما لم ترق لها بتاتاً.

أزاحت الأغطية بتململ واستلقت على بطنها لتحدق عبر النافذة بعدما كوّرت وسادتها وأسندت ذقنها عليها. لم تكن معتادة على ألاّ يحتاجها الآخرون ويستغنوا عنها! كيف يمكن أن تسير الأمور بهذه السهولة من دونها؟ ولكن، هل أن الخصال

التي كانت تفخر بوجودها فيها مثل النضج والكفاءة ورجاحة العقل كانت في الحقيقة مجرد تغطية رقيقة لعدم شعورها بالأمان؟ هل كانت رغبتها - أو بالأحرى حاجتها إلى التخطيط والتنظيم مجرد حاجة ملزمة اكتسبتها في طفولتها؟ وهل تعكس خوفاً فيها من عدم قدرتها على مغالبة المشكلات؟ هل كان ديڤيد على صواب عندما اتهمها مرة بأنها تُسيّر حياتها وفقاً لرسوم بيانية؟ يا لها من فكرة مرعبة!

أطبقت أسنانها غيظاً ولتمنع نفسها من حك جلدها، ثم تناولت الزجاجة من على المنضدة لتدهن من السائل الملطف. هذه هي الزجاجة الثالثة وقد بدأت تكره رائحة البابونج.

جلست في الفراش تنتظر جفاف السائل الزهري، وتركزت أفكارها على ديڤيد. لقد تغيّرت علاقتها من جديد تغيّراً صارخاً وغريباً. فديڤيد، الرجل المتقلب واللاهي والمندفع، تسلّم زمام حياتها في حين أن كلير الموثوقة والمعتمد عليها تستلقي في الفراش كطفلة واهنة. إن هذا يقلب الأدوار التي صوّرتها هي رأساً على عقب، ولشد ما يزعجها هذا الإنقلاب.

كانت تتكل دائماً على نفسها واعتادت على ذلك، وفي أسوأ الظروف كانت تستعين بوالديها الجاهزين دائما لمساعدتها ولكن في الأسبوع الفائت، ومع أن أمها كانت تأتي يومياً حاملة الطعام وأرطال البرتقال الغنيّ بالفيتامين ج، إلا أن ديڤيد هو الذي كان حاضراً باستمرار ليلبّي احتياجاتها. وفي حال عدم وجوده في غرفتها كانت تسمع صوته متحدثاً مع كاتي في غرفة الجلوس، وتستأنس بصوت خطاه وهو يسير في أرجاء الشقة.

أجل، لولا ديڤيد لخربت الأمور، فهو أعاد تنظيم مواعيدها

مع زبائنه، وجاء بثيابها من المصبغة، وألغى حصص كاتي الرياضية واستحصل على فروضها الماضية من المدرسة... فعل كل ذلك من تلقاء نفسه وبنفسه، فإذا بها تعتمد عليه بالفعل وتندهش لذلك.

من الناحية النظرية، كان من المفروض بالطبع أن تظل غاضبة منه، فكلاهما تناسيا الشجار الذي حصل بينهما ساعة انهيارها. وقد طغى مرضها وتمريضه على فترة البرود التي تعقب عادة نقاشاً حاداً كذاك. وهكذا تصرفا كلاهما وكأن شيئاً لم يحصل. وبرغم ذلك لم تقدر هي أن تنسى.

تذكرت الآن كلماتها الغاضبة المحمومة وشعرت بالخجل. كيف استطاعت أن تتهمه بإهمالها؟ لقد كان أفضل صديق ترجوه امرأة، وعلى حساب نفسه أيضاً فعنايته بها وبكاتي تعيقه ولا شك عن الكتابة. لقد استولى على جهاز الكومبيوتر خاصتها وكانت تسمعه يطبع عليه في السهرات معتقداً بأنها نائمة. بل أن شعورها بالذنب دفعها إلى النوم باكراً مع كاتي كي تمنحه بضع ساعات إضافية من العمل ولكي يتمكن من الإخلاد إلى سريره في ساعة معقولة - وسريره هو الأريكة في غرفة الجلوس إذ أصر على البقاء قريباً منها في حال احتاجت إليه.

أجل، لقد وجدت الكثير من الوقت لتفكر ولتحدق في السقف. وجدت الوقت لتدرك بأنها عثرت على شخص آخر تستطيع الإعتماد عليه، شخص قادر على مساعدتها وحمل أثقالها، وصديق تستطيع أن تشاركه حياتها... لكن الوقت قد فات على ذلك بالطبع... شعرت بغصة وهي تقر بهذه الحقيقة فهو قال بلسانه إنه ليس مجنوناً ليتغيّر ما دام يملك أفضل ما في العالمين.

الفصل العاشر

ومضى ديڤيد يطبع ما يلي:

كانت «أغاثا كرمبيكر» ميتة وعرف الملازم «فنسنت بوكي» هوية المجرم. ولكن كيف يثبت بأن زوجها قتلها؟ فبرغم كل شيء لم يكن لدى نورمان سبب وجيه لخنق زوجته بهذه الوحشية، فأغاثا كانت تغضّ الطرف عن علاقته بكونستانس. ولماذا يقتلها في حين يحتاجها حيّة تدير بيته وتعتني بأولاده وتمنحه أفضل ما في العالمين...»

تجمدت أصابعه على المفاتيح. ثم سارع وضغط تكراراً على مفتاح الشطب ماحياً العبارة المؤذية عن الشاشة بسحر تكنولوجي. وبدأ من جديد: «تدير بيته وتعتني بأولاده، إنه... إنه...» إنه ماذا؟ اللعنة! وعاد ومحا الكلمات الأخيرة ثم دفع الكرسي إلى خلف وتساءل لماذا لا يملك مفتاحاً كهذا لفمه، زراً سحرياً ما أن يضغط عليه حتى ترتد الموجات الصوتية إلى حلقه فيضطر إلى ابتلاعها والإختناق بغبائها؟

يا له من غبيّ! لقد قال لها: «لديّ هنا أفضل ما في العالمين، فماذا يطلب الرجل أكثر من ذلك؟» تأوه وأسند رأسه إلى ظهر الكرسي وحدّق في السقف... كانت مزحة وحق السماء، فقد نطق الكلمات بخفة ومن دون تفكير!

كانت مجرد جواب بسيط غير مؤذ... إذن، لماذا شعر فوراً بالذنب وصبغت الحمرة وجهه وامتدت إلى رأسه حيث انزرعت في ضميره؟ لماذا تجمد وحدق بخرس إلى كلير، ولمّا

تصرفت، بطبيعة الحال بغضب وانجراح، ردّ عليها بصراخ وغضب مماثلين؟

هل يعذبك ضميرك يا ديڤيد أولسون؟ هل ستكون لديك الشجاعة لتعترف لنفسك بأن تلك الكلمات الشهيرة الأخيرة لم تخلُ من بعض الحقيقة؟

أغمض عينيه لأن السقف لم يزوّده بأي جواب، وحاول أن يركّز ويغربل العواطف المتصارعة في داخله، ويعطي لنفسه دوافع وتبريرات وأسباباً... لا شك أن سنة زواجهما الأخيرة كانت شاقة، فهل لهذا السبب اختار طريق الهروب السهلة؟ هل كان سطحياً وغير ناضج إلى حد أنه تخلّى عن كلير، وارتاح ضمناً لأنه استطاع أن ينهي الصراع، ثم وطّد عزمه على أن يستمتع بقرب زوجته وابنته من دون أن يضطر لدفع ثمن الإرتباط الزوجي؟

«أيها الأحمق! أنت تستحق أن تخسرها!»

فتح عينيه، وبتعب شديد قدّم الكرسي من الطاولة ووضع أصابعه على لوحة المفاتيح... حدّق في الجهاز بذهن خاوٍ لخواء الشاشة أمامه... لم تكن لديه أية رغبة في الكتابة. ولكن، ألم يقل له الكابتن بأن لديه مسؤولية تجاه مهنته؟ أجل، مسؤولية... تنفس بعمق وشد ظهره، وآل على نفسه بأن يحاول أقصى جهده كي ينجح في هذا الإرتباط المهني بعدما فشل في ارتباطه الزوجي.

حسناً، لقد عرف الملازم بوكي بأن زوج أغاثا هو القاتل والآن يجب البحث عن الدافع... وبدأت أصابعه تنقر بسرعة على المفاتيح.

• • •

مع نهاية الأسبوع الثاني، استعادت كلير عافيتها تقريباً إذ كانت ما تزال بحاجة إلى الكثير من الراحة ولكن قيلولة بعد الظهر والنوم باكراً كانا كافيين لتأمين نشاطها خلال النهار.

فقد بدأت تعمل ساعتين قبل الظهر، ولم يعد لديها ما يذكّرها بالجديري سوى ندبة على ظهرها وعزوفها الطويل عن سائل البابونج.

وذات صباح، وهي في طريقها إلى الحمام لتأخذ دوشاً، تساءلت لماذا لا يبدو ديڤيد مستعجلاً على العودة إلى شقته ما دامت استعادت عافيتها؟ أما كاتي، فكانت في السماء السابعة لفرط هنائها وأعلنت صراحةً عن رغبتها في أن يبقى بابا معهما إلى أبد الآبدين، وديڤيد كان يتصرف كما لو أنه قرّر البقاء والإستقرار وبدا سعيداً بالنوم على الأريكة إلى أجل غير مسمّى... إذن، بات لزاماً عليها أن تفعل شيئاً لتصحح الوضع.

بالطبع، هي أيضاً تريده أن يبقى، بل تريده في مخدعها ولذلك كان يزعجها كثيراً نومه على الأريكة.

«لا شيء مثل الصراحة يا كلير!» عنّفت نفسها بعدما استحمت بسرعة ووقفت تنظر إلى وجهها في مرآة الحمّام المكتسية بالبخار. إنها تريد أن تعيد ديڤيد إلى فراشها، إلى حياتها - تريد استرداده وكفى! ثم جففت جسمها بحركات حثيثة كأفكارها، وسارعت إلى ارتداء بنطال جينز وكنزة خفيفة. سيكون هذا يومها الأول لعودتها إلى عالم الأحياء، مناسبة جديرة بالإحتفال. ولكنها، وللأسف، لم تشعر برغبة في الإحتفال يا للأسف. يا للأسف... منذ أيام وهذه الكلمة تتردد في ذهنها مثل ترنيمة رتيبة، وتخدّر حواسها تجاه ما تعتبره سخرية مضحكة. أجل، كان من الساخر جداً أن تصرف

طاقة هائلة في حدّ محاولات ديڤيد لمعالجتها في حين ما عادت راغبة في الصدّ وما عاد هو راغباً في المصالحة.

وفكرت لمّا دخلت المطبخ لتتناول إفطارها، من المرجح أن ديڤيد لم يعِ هذا الوضع بعد، وسوف يصعب عليه الإقرار بأن مضايقاته المتواصلة باتت نوعاً من الرتابة في حياتهما... وفي الحقيقة هو لا يريد استردادها كزوجة، ودليل ذلك. الصدق الذي استشعرته في كلامه عندما قال بأنه حاصل على أفضل ما في العالمين...

هناك أيضاً قضية الحب... وتوقفت فجأة عن دهن الزبدة على شريحة الخبز... لم يذكر كلمة الحب أبداً... أبداً... حتى في عزّ محاضراته المزهرة والمنادية بضرورة استعادة وضعهما الصحيح... ولم يقل أبداً بأنه لم يتوقف عن حبها أو أنه أحبها من جديد.

تركت السكين تسقط على المنضدة ونسيت فطورها. لقد حان الوقت لتضع حداً لهذه المهزلة التي آل إليها طلاقهما، فلقد كان مؤلماً بالنسبة إليها أن يكون ديڤيد زوجاً زائفاً... ربما يتعين عليها أن تقنعه بالإنتقال إلى نيويورك إذ لا يمكنها أن تستمر في حبّها لنصف زوج وأن تعيش نصف زواج... والخطوة الأولى هي أن تخرجه مرة ثانية من بيتها.

عبرت الردهة إلى مكتبها وكان ظهرها متصلباً بالعزم إلى حد انعكاسه في خطواتها الحازمة. قرعت الباب بيدها وأدارت المقبض غير منتظرة جواباً.

لم يبد على ديڤيد أنه سمعها أو لاحظ اقترابها، كان منحنياً على لوحة المفاتيح وأصابعه تطير فوقها، وقدّ قرّب وجهه من الشاشة وكأن هذا التقريب قادر بشكل ما

على إيصال أفكاره المتدفقة بسرعة أكثر إلى الشاشة.

«ديفيد.» خاطبته بهدوء إلا أنه أجفل وتطلع إليها دونما ارتباك إذ كان بصره ما يزال غارقاً في متابعة الحروف.

«ديفيد، حان الوقت لتمضي.»

«نعم؟»

«حان الوقت لتعود إلى بيتك، لتنتقل إلى الشقة العليا.»

وحاولت أن تضيف «وأن تنتقل إلى نيويورك.» ولكن الكلمات علقت في حلقها كغصة فابتلعت ريقها بصعوبة.

«نعم؟»

«هل تصغي إليّ يا ديفيد؟»

انتظرت عودته إلى نفسه، إلى ديفيد أولسون. فهو، أثناء الكتابة، يتقمص شخصية الملازم بوكي التحري الإيطالي الصلب والمغرم بأكل المعجّنات.

«هل أنت معي الآن؟ كنت أقول إني تعافيت تماماً وأستطيع العناية ببيتي من جديد والمطلوب منك أن تجمع حوائجك وتعود اليوم إلى شقتك.»

فهز رأسه وأجاب: «لم يحن الوقت بعد لتركك بمفردك يا حبيبتي، ففي فترة النقاهة تحتاجين إلى الرفقة أكثر من احتياجك إليها في فترة المرض.»

«الرفقة! إنها آخر احتياجاتي!»

«أجل، قد تكونين على حق، فأنت بالتأكيد لم تفتقدي الزّوار. خلال مرضك.»

كانت نعومي تعودها يومياً لتثرثر معها أو لتسلّي كاتي، وحتى الكابتن زارهم أكثر من مرة متابطاً لعبته العسكرية وكانت تشاركه التعارك من خلال هذه اللعبة التي أُعجبت بها

أيما إعجاب. كذلك أُمها كانت تزورها يومياً مع البرتقال. ونتيجة لذلك باتت تتشوق للهدوء والسلام.

«والآن،» قال ديفيد شارحاً: «إن لم أستطع البقاء لأسباب غير أنانية فسأبقى لأسباب أنانية. فأنا ماضٍ في عملي باندفاع هنا ويجب أن أكمل هذا الإنتاج العظيم. لا بد أن هالتك تزودني بالوحي.» ابتسم بسرور ومضى يفسر:

«أرسلتُ للناشر فصلاً معدّلا ومخططا تمهيدياً لفصل آخر - كنوع من التسوية بين آرائه وآرائي - وأُعجب بهما كثيراً. إن الملازم بوكي سيقوم بتحريات شيقة على ما يبدو. فلقد أعطي الضوء الأخضر وصرنا جاهزين للإنطلاق.»

«تسرّني أخبار نجاحك يا ديفيد، ولكن... «يا إلهي: صاروا جاهزين للإنطلاق؟ ضربتها المقارنة كصاعقة. الرحلة! لقد نسيت أمرها! لقد ضيّع على نفسه جولته الدعائية! وهتفت بارتعاب: «ديفيد لقد ضاعت عليك جولتك... ضاع منك الكثير... زيارة أربع مدن، وحفلات توقيع ومآدب ودعاية ضخمة!»

إنه يعشق الشهرة والأضواء فكيف استطاع أن...

ولكنه أجابها دونما اكتراث: «بارني يعمل على إعادة تنظيم المواعيد. يا إلهي يا كلير، هل حسبت فعلاً بأني كنت سأتخلى عنكِ وأنتِ مريضة مدنقة؟»

«أجل! أعني أنه كان يجب أن تفعل... أعني أني أردتك أن تسافر!» هالها أن يُلغي جولته الترويجية ليبقى معها! ولكنها طلبت منه أن يسافر ولو بطريقة غير مباشرة. ومع ذلك لم يفعل! أذهلها التماثل بين الحاضر والماضي، فلقد طلبت منه آنذاك أن يمضي فمضى، وطلبت منه الآن أن يمضي فمكث.

وفجأة تبخّر تصميمها السابق على إبعاده وحلّ مكانه تصميم أقوى على استعادته، فهي تحبه ولا تطيق أن تخسره مرة ثانية. عليها فقط أن تريه وتقنعه بأنه لا يمتلك أفضل ما في العالمين في الظروف الراهنة، بأنه معها ومع كاتي سيمتلك أفضل ما في كل العوالم مجتمعةً. ولكن كيف ستجعله يرى ذلك؟ ماذا يجب أن تقول كمقدمة؟ أوه، «بالمناسبة يا ديڤيد، كنت تتحدث مؤخراً عن عودتنا إلى بعضنا البعض، حسناً، هل تريد أن نقيم حفلة الزفاف داخل البيت أم في الحديقة؟»

ولكن صوت ديڤيد قطع عليها أفكارها المشوشة: «ولذلك أنا مضطر للبقاء هنا يومين آخرين، هل يناسبك ذلك؟» كان يحدق فيها باستغراب: «هل توافقين يا كلير؟ ستكون فرصة لك لتعودي على مهل إلى رتابتك السابقة. ماذا تقولين؟»

«حسناً. بالتأكيد.» ثم غادرت المكتب أو بالأحرى هربت منه وأفكارها في دوّامة... كيف ستجعله يقع في حبّها مرتين؟

كانت ما تزال تبحث عن الوسيلة الفضلى لمصارحته عندما سمعت كاتي تهتف وهي تركض لتفتح باب البيت: «جاءت جدتي! ماذا جلبت لي يا جدتي؟»

«هذه ليست لكِ يا حلوتي إنها لأمك.» سمعت أمها تجيب، وتبع ذلك صوت خطوات تتجه إلى غرفة النوم فنادت: «أنا هنا يا أمي.» كانت في غرفة الجلوس تحاول فرز الرسائل البريدية التي تراكمت أثناء مرضها وقالت والدتها حالماً ولجت الغرفة: «ألم تبكّري في مغادرة الفراش؟ لماذا لا تتركين هذه الرسائل وشأنها حتى تقوي أكثر؟»

فأزاحت كلير كدسة رسائل، وأفردت لأمها مكاناً على الأريكة لتجلس بقربها. وقالت: «أظن أن فتح عدد من

المغلفات ليس عملاً يدوياً مضنياً.

«جئتك ببعض البرتقال.» ووضعت الكيس على الطاولة، فابتسمت لها كلير شاكرة ولم يطاوعها قلبها على القول بأن نفسها عافت البرتقال كعوفها سائل البابونج. وقالت لابنتها: «كاتي، هل لك أن تضعي هذا البرتقال في المطبخ؟» وناولتها الكيس فخرجت به الطفلة وهي تقفز من شدة حيويتها.

وعلّقت أمها السيدة آنّا إدواردز. «ما تزالين بحاجة لفيتامين! وقد قرأت في مكان ما أن تناوله عبر البرتقال الطازج يفيد أكثر بكثير من حبوبه المصنعة، وأرجح أيضاً أن البرتقال أرخص ثمناً على المدى البعيد، مع أن الرطل منه يُباع بدولار وتسعة عشر سنتاً، ويأتينا بواسطة البرّادات من فلوريدا أو تكساس.»

فتضايقت كلير من هذه الأسطوانة القديمة ولكنها قالت بدماثة: «هل تودّين أن أدفع لك ثمنه؟»

«أعوذ بالله!» وبدت منصدمة حتى العمق فسارعت كلير إلى الشرح: «لمّا ذكرت أن سعره باهظ حسبت أنه قد يكون كلّفك فوق طاقتك...»

«حبيبتي، أنا ما ذكرت ذلك إلا لاعتقادي بأن الأمر سيهمك.»

فلم تنشأ أن تغضبها وحوّلت الحديث باتجاه كاتي، موضوع أمها المفضل، ثم في معرض الكلام، ذكرت آنّا أن كاتي تشبه كلير كثيراً حين كانت طفلة، فاغتنمت كلير الفرصة لتسألها:

«هل كنتِ ووالدي تعانيان بالفعل ضائقات مالية لمّا كنت صغيرة؟»

«أوه، لست أدري... لا ليس في الحقيقة. أعتقد أننا مررنا

ببضع سنوات عجاف أثناء مرض جدتك. أتذكرين الفترة التي عاشتها معنا؟ إنما لم تكن سيئة كثيراً مثلما كانت الأوضاع حين كنت أنا صغيرة. كان ذلك خلال الكساد الإقتصادي بالطبع، وكانت أمي تعاني الأمرّين من تأمين الطعام والكساء لعائلة كبيرة لا تملك مالاً. المال، المال، كان شغلها الشاغل وحديثها الدائم! كانت تبدو هرمة ومرهقة في سن الأربعين لشدة قلقها من قلة المال. ولذلك كانت حياتي سهلة بالمقارنة. ولكن ماذا عن أطفال اليوم؟ القصة مختلفة تماماً، فمنذ أيام مررت بمتجر للألعاب و...»

ولكن كلير لم تصغ إلى تتمة القصة إذ هالها أن تكون آنّا أدواردز غافلة تماماً عن الإرث الذي أخذته عن والدتها. أو عن أنه كان بوسع كلير أن تصف آنّا بنفس الكلمات التي وصفت بها آنّا أمها، ومثلما ستصفها كاتي في المستقبل. ولذا تضاعف عزمها على منع وصول هذه المزية العائلية إلى كاتي وأولادها.

حاولت أن تعود بأفكارها إلى حديث أمها ولكن آنّا لاحظت شرودها وسألتها: «حبيبتي، هل أنت متأكدة من تحسن صحتك، تبدين شاحبة قليلاً وذابلة.»

فطرد قلق أمها عليها كل الأفكار الأخرى من رأسها. ووجدت نفسها فجأة على أهبة البكاء.

فسارعت أمها وأحاطت كتفها بذراعها وسألتها برقة وحنان: «ما بك يا حلوتي، ممّا تعانين؟»

فأحست وكأنما انفجر فيها سدّ ما وهتفت والدموع تجر على خديها: «أواه يا أمي! ما أزال أحب ديفيد وأريد أن أسترجعه فماذا سأفعل؟»

لم يبدُ على أمها أي استغراب بل بدت مرتاحة حين سألتها مبتسمة: «أهذا كل شيء؟ في رأيي أن الحلّ الأبسط هو أن تصارحيه بذلك وتضعي حدّاً لعذابه.»

فأعولت كلير: «ولكنه لا يحبني!»

وهنا بدا الإستغراب على أمها: «من أين أتيت بفكرة كهذه؟»

فاستقامت كلير في جلستها وقالت: «إنه يفضل الإستمرار على ما نحن عليه كيلا يضطر إلى تحمل مشكلات الزواج وضغوطه.»

«حقا؟ ألهذا السبب صرف الأسبوعين الماضيين على تمريضك والبقاء بقربك؟ هل كان يبحث عن وسيلة سهلة للهرب من الضغوط؟ يا طفلتي، يا طفلتي، منذ عامين وأنا أراقب لعبة طلاقكما السخيفة، وكل منكما لم يكن يتصرف تصرف المطلقين ـ» فهمّت كلير بالإحتجاج إلا أنها رفعت يدها تسكتها ومضت تقول: «أعرف، أعرف أن كلاً منكما كان يتظاهر بالخروج مع أصدقاء وصديقات آخرين ولكن كل ذلك كان مجرد تغطية. وأنا، قبل الجميع، سأسعد كثيراً عندما تضعان حداً لكل هذا الهراء وتبدآن العيش كزوج وزوجة من الناحيتين الشرعية والجسدية كونكما لم تتوقفا أبداً عن تبادل الحب!»

أفحمتها أمها بهذه الكلمات التي أصابت كبد الحقيقة. فهي، مثل ديفيد، لم تتقبل الطلاق إنما كانت أمهر منه في خداع نفسها! أحاطت أمها بذراعيها من شدة الفرح... يا لها من امرأة حكيمة رائعة! لقد حان الوقت لوضع حدّ لهذا الهراء... الليلة بالذات... وبدأت تخطط مع أمها لإعادة ديفيد إلى قفص الزواج.

* * *

كان اللحم الروستو جافاً بعض الشيء كونها شردت وتركته في الفرن وقتاً أطول من اللازم. كذلك كانت الصلصة متكتلة قليلاً، لكن البطاطا والبازلاء على خير ما يرام، والبوظة لا يمكن أن تحدث مشكلات. كانت راضية إجمالاً عن طهيها، وإذا كان ديفيد قد شكّ قليلاً في رغبتها المفاجئة بتحضير وجبة مميزة، وارتاب في عرض أمها لأخذ كاتي معها، إلا أنه لم يقل شيئاً. ولكنها استغربت عدم تعليقه على توترها فقد كانت هي منتهى التوتر بسبب خشيتها مما ستقدم عليه. كذلك لم تركّز على حوارهما، لأن حواراً آخر كان يدور في ذهنها حيث ستُعري خلاله قلبها وروحها، فإما أن يقول نعم أو يقول لا.

«كلير؟ كلير؟ سألتك إن كنت تريدين مزيداً من القهوة؟»

كانا يزالان جاليسن إلى المائدة وقد انتهيا من تناول البوظة «لا، شكراً. لا أريد المزيد.» تململت على كرسيها ثم أخذت تعبث بثمار البرتقال الموضوعة على طبق وسط المائدة.

تناولت برتقالة ثم سألته وهي تديرها بين أصابعها: «هل تعرف كم ثمنها؟»

«ليست لديّ أي فكرة.»

«أنا أعرفه، وأمي تعرفه بالدقة، وأراهن على أن جدتي كانت ستعرفه، وإذا سألنا كاتي بعد خمس سنوات، وظلت الأمور على ما هي عليه، فسوف تعرفه أيضاً. ثم حدّقت فيه عبر الطاولة وأردفت بجدية متناهية: «ديفيد، أعدك بأن أبذل أقصى جهدي لأحول دون معرفة كاتي بالسعر الدقيق للبرتقال.»

«كلير، عمّا تتكلمين؟»

فبدأت تتكلم بتردد وتلعثم، وتحدثه عن البرتقال وعن جدتها وعن الكمبيالة، وخلصت ألى القول: «ديفيد، أعلم أنه في سنة زواجنا الأخيرة كنت زوجة لا تُطاق، كنت دائمة التذمر والقلق، وأعلم بأني استشهدت مرة بمثل النمر الذي لا يستطيع أن يغيّر رقطه... ولكني تغيّرت!» سكتت لحظة ثم أردفت بإصرار وكأنه أوشك أن يجادلها:

«وأنت تغيّرت أيضاً، مع أنه ما عاد يهمني ذلك، وما عاد يهمني أية سيّارة تبتاع، وإلى أي مكان سافرت سواء إلى ألاسكا أم سواها فهي تظل أفضل بكثير من كوريا أو ڤييتنام...»

«مهلاً يا كلير، مهلاً، هل هناك مغزى لهذه القصة؟ هل يمكن أن يكون هذيانك هذا وسيلة لإعلامي بأنك تحبينني؟»

فابتلعت ريقها بصعوبة وأومأت برأسها.

«وطهوت الروستو لتثبتي لي بأنك تغيّرت؟»

فأومأت ثانية.

«حسناً، وكوني أكلت طعامك، فماذا يعني لك ذلك؟»

«ليست لديّ أية فكرة!» ولكنها ابتسمت بعذوبة وعكس وجهها الألق الذي غزا عينيه.

«حسناً، إن تناولي ذلك اللحم الجاف يعني بوضوح أني أحبك أيضاً، وبأني ما زلت مصمماً على تسلّم زمام الطهي بعد عودتنا من شهر العسل الثاني.»

«وبذلك أحصل أنا على أفضل ما في العالمين!»

قالت من باب المزاح، ثم وجدت نفسها تركض إليه وتعانقه بحرارة. فعلّق متأوهاً: «لا تمازحينني بهذه العبارة يا كلير فلا أصدّق بأنك غفرتها لي.» ثم تردد وسألها مُكرهاً:

«أظنك عرفت بانها لم تخل من بعض الحقيقة؟»

«أجل، ولكني لم أظن بانك عرفت ذلك.»

«لا أحب الإقرار بحقيقة كهذه، إنما يبدو أني كنت أتصرف بانانية في الفترة الأخيرة.»

«لا عليك، فانا اكتشفت بأني صرت استمتع بصرف المال.»

ضحكا معاً وتعانقا من جديد بحرارة.

أُقيم حفل الزواج في فناء البيت الخلفي. كان الأشبينان نعومي ماكسويل وزوجها الكابتن الذي بدا رائعاً في بزته العسكرية المزينة بالأوسمة. وكان فستان العروس الأخضر بلون البحر، وحضنه عبارة عن طيّات فوق طيّات من القماش الرقيق تموج كالزبد حول كاحليها. أما العريس، وبرغم شحوبه البسيط نتيجة مرضه لفترة أسبوعين بالجديري، فقد بدا وسيماً وزاهياً في بدلة رسمية رمادية ذات حمّالتين متعددتي اللون.

بعد أتمام مراسم الزواج وقف العروسان يتقبلان التهاني وبينهما طفلة الزهور التي ما لبثت أن سألت باهتمام:

«بابا، أما زلت تشعر بالحكة؟»

«ليس كثيراً، ولكن بوسعك أن تحكّي وسط ظهري... لا، فوق بقليل... اتجهي إلى اليمين... آه هنا بالضبط.»

وتنهد بارتياح عندما حكّت أصابعها البقعة المطلوبة.

تقدّمت نعومي برفقة زوجها، فقبلت العروسين وقالت:

«يسرني جداً أنكما لم تضطرا لتأجيل حفلة العرس. أقصد أن الجديري قد يصيب طفلا فتكون سببا وجيهاً لإلغاء رحلة مدرسية ولكنه لا يلغي عرساً، فلا أحد سيصدق ذلك.»

فرد ديفيد مبتسماً: «أنا نفسي لا أصدق بأني قاسيت من الجديري مرتين ولكن الطبيب أوضح بأن إصابة الطفل بحالة خفيفة منه تزوده بمناعة لمدى الحياة.»

فعلّقت كلير: «أحسبك تزوّدت بمناعة تكفي لعدة حيوات لشدة ما عانيت. لا أظن أني سأتمكن من المرور بمحنة كهذه مرة أُخرى.»

فقال لها الكابتن بواقعية: «إن كنت تنوين ملء هذا البيت بالأطفال كما صرّحت سابقاً، فسوف تمرين بهذه التجربة ست مرات أو أكثر.»

«لا تذكّرني بذلك، أرجوك!»

ثم ابتسمت لهما بمودة وأردفت: «ولا تذكّراني أيضاً بأنكما تنويان الإنتقال، فلقد بدأتُ أحذق لعبتك العسكرية يا كابتن وأهزمك من حين لآخر.»

كان آل ماكسويل قد قررا البقاء في المنطقة وكانا بصدد شراء بيت قريب من منزل ابنتهما، وقد أوضحا لكلير وديفيد بانهما سوف يحتاجان الطابق الثاني لمستقبلهما العائلي.

وهنا أقبلت أمها وقالت: «يريد عمك رالف أن يلتقط بعض الصور، تحت تلك الشجرة، هيا تعالا معي لقد سرّني كثيراً أنكما قررتما إسناد مهمة التصوير إلى رالف. فاستوديوهات التصوير تطلب أسعاراً خيالية! كذلك برهنتما عن نباهة في إقامة عرس صغير خارجي، فالأعراس الكبيرة باهظة التكاليف! المقصف وفستان العرس وبطاقات الدعوة... لقد أوشك عرسكما الأول أن يفلسنا، وأذكر أن...»

فتبادل العروسان نظرات باسمة ولم يلقيا بالاً لكلمات أمها. فقد تعلمت كلير أن تتقبل والدتها وتحبها على علاتها وكانت

تحمد الله على أنها استطاعت أن تكسر القالب.

ثم هرول نحوهما رجل قصير أصلع وقال مصافحاً ديڤيد: «ما هذا يا ديڤيد! جديري! أعراس! شهور عسل! متى ستنتهي أعذارك لتأجيل الجولة مرة بعد مرة؟ إن جمهورك يريدك ويحتاجك ويحبك!»

فضحك ديڤيد وقال وهو يربت على ظهر الرجل: «الشهر المقبل أعدك بذلك.» ثم قام بواجب التعريف: «حبيبتي، أقدّم لك بارني، وكيل أعمالي. بارني، أقدّم لك كلير صديقتي.»

فابتسمت لبارني تحيّيه، واستغربت تعبير ديڤيد. وفيما كانا يتبعان أمها إلى حيث يقف المصوّر همست في أذن ديڤيد: «صار بوسعك الآن أن تقول زوجتي.» كانت تقصد تلك المرة التي عنفته فيها حين قدّمها إلى صديقته الشقراء كزوجته.

«أعرف ذلك.» أجابها وهو يأخذ يدها بيده وينظر في عينيها حاجباً الضجة والفوضى عنهما: «ولكنك كنت دائماً زوجتي يا كلير، أما الآن فأريد أن يعرف العالم أجمع كم أنا فخور بأنك صديقتي أيضاً.»

وقفا ليتصورا أمام شجرة التفاح وكانت براعمها الزاهية تتساقط على العشب لتشكل سجادة زهرية تحت أقدامهما.

تطلعت كلير إلى أغصانها التي بدأت تُنبت أوراق الربيع والخضرة والبعث والحب البهيج، ثم مدّت يدها لتربت على لحاء جذعها السميك الذي بدا كالصداقة، عنيفاً ومعقداً وخالداً.

(تمت)